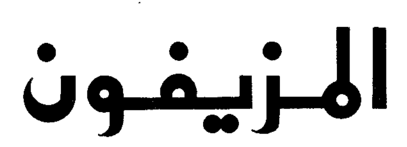
اسبيرو جبّور



المزيفون


المزيفون

اسبيرو جبّور

المزيفون

المنشورات الارثوذكسية

توزِّعها

مكتبة السائح

طرابلس ـ شارع الراهبات

تل ٦٢١٥٤٩ — ٦٢٥٧٥١

٦٢٧٠١٧

الطبعة الأولى

١٩٨٣

أشخاص القصة

بخوميوس	: ناسك
توما	: أستاذ بيولوجيا
انسطاسيا	: والدته
يونان	: والده
نعماء	: أخته
جبّار	: أخوه
طرّاد	: أخوه
نمّار	: أخوه
كاسيانوس	: زميله وصديقه
لوقا	: طبيب نفسانيّ.
ماريا	: أستاذة بيولوجيا.
فيلبس	: زوجها
صالومي	: أختها
يوحنا	: ابنها
سوسنة	: ابنتها
مرقس	: والدها
اليصابات	: أمها

صنوان : زميله
تيطس : أخوها
روبير : ابن عمها وأستاذ حقوق.
شادي : ابن عمها
سليمان : صديق توما

«شيخ — كان كبيراً بين الرائين — كان يؤكد هذا : «القوة التي من العلى، رأيتُهَا تقف على المعتمد، رأيتُهَا تستقر أيضاً على ثوب الراهب في حين ارتداء الثوب.»

عن طبعة الأب Nau ٣٦٥

أيها الثالوث القدوس

في ظهورك الإلهي يوم اعتمد يسوع في الأردن غرق إبليس والموت إلى الأبد ببرق لاهوتك الثالوثي الضياء، فنقلنا من مملكة الظلمة والموت الى ملكوت النور والحياة. فإليك أتوسل بشفاعات القديسين العظام الذين نعيد لهم في هذا الشهر المبارك أن تقبل كتابي هذا

قرباناً حياً طاهراً

١ — من أجل فَلَاحِ أصحابِ الأريحيّة الذين لهم فضل في تأليف هذا الكتاب وطباعته.

٢ — من أجل راحة أرواح البطريركين ثيئوذوسيوس والياس ووالديَّ وجميع المنتقلين الى نعيمك.

حمص في ٢٠/ ٤/ ١٩٨٠ (حاملات الطيب).

طرابلس في ٢٥/ ١/ ١٩٨٢ (غريغوريوس اللاهوتي).

المؤلف

الفصل الأول

انسطاسية — يا «حكيم» لوقا ! أتيتك في استشارة طبية نفسية راجية الفوز بالمطلوب.

لوقا — ملامحك تدل على أن أوضاعك النفسية سويّة وإن كان بعض القلق يساورك، فهل يتعلق الأمر بسواك؟

انفرجت أساريرها، واطمأنت نفسها الى نباهة الدكتور لوقا، فبادرته بالقول:

بالصواب أجبت. فالأمر يتعلق بابني.

لوقا — من هو ابنك؟

هو الدكتور توما الأستاذ في كلية البيولوجيا والباحث المنقب في معهد الأبحاث البيولوجية.

— ما شأنه؟

— والده امتهن التحاليل الطبية والكيماوية، وهام بالفيزياء، فمنعني من تعميد توما مصراً على ترك الطفل ينشأ حراً، فيختار مذهبه بمطلق حريته.

— وماذا بعد؟

— شجعه على تلقّف العلوم والتفكير الفلسفي الحرّ، ووجّهه صوب البيولوجيا والفلاسفة الأحرار من أمثال فولتير ونيتشه وجان بول سارتر. فغاص في متاهات التشريح الحياتي والفكري، وأصيب بولع مفرط بالمطالعة لدرجة أنه يعجز عن السكون والإخلاد الى السكينة.

— هذا انسان قلق.

— ليس بقلق تماماً. وإنما هو عدو الكسل والراحة. منعني والده من تلقينه مبادىء الدين صغيراً، فأفلت من حضني كبيراً. أما تعتقد مثلي أن تلقين الدين للأطفال بصورة سليمة هو الضمانة الوحيدة لنشأتهم نشأة متدينة ذات سويّة أخلاقيّة رفيعة؟

— هذا صحيح نفسياً، لأن انعطاف الطفل نحو الدين ينمي عاطفته الدينية، فتكبح هذه غليانه العقلي الهائج الذي قد يُخرج ابن الثماني سنوات من حضن والدته المتدينة، ليعيش ممزقاً عقلياً. فحتى الأطفال يصابون بهوس الأسئلة الفلسفية المستعصية الحل. فإن لم تعدّل العواطف الدينية من هياجها جرفت الطفل نحو المجهول.

— حيّاك الله يا حكيم. هذا الرأي بحاجة الى التعميم لنقضي على الفساد التربوي الذي يذيعه ضالون ومضلِّلون. ولكن أجبني عن مصير ولدي.

— تابعي حديثك عن شأنه وأحواله الحاضرة.

— وُلعُه بالمطالعة والبحث والتنقيب تجاوز الحدود المعقولة. يسلّي نفسه باحتساء القهوة وبالتدخين. يتغيب حين التعب عن البيت. ربما كان يتسلّى أيضاً بالخمر. يتناولها في المنزل، ولكن باعتدال. منذ أشهر أخذت أتنشق في غرفته رائحة تختلف عن رائحة التبغ. ألعلها رائحة الحشيش؟ يعيش بعقله لا بعاطفته. عجزت عن التأثير عليه دينياً بعد تجاوزه العاشرةَ من العمر، لأنه انقلب الى عقلاني منذ ذلك الحين.

— وماذا بعد؟

— منذ سنة أخذ يميل الى التسلي «بالورق».

— هل يتعاطى القمار؟

— أظن أنه في طريقه إليه.

— هل بدأ العلم يُخرجه من ذاته الى مُتعٍ أخرى؟

— هذا من اختصاصك. ماذا ترى؟

— هل تشعرين انه صار متضايقاً من الإرهاق في سبيل العلم، ففتشُ عن هوايات أخرى تخفف عن كاهله مشقات الفحص والتنقيب؟

— منذ ٣ سنوات ألاحظ عليه شيئاً من الضجر والملل والسأم.

— هل من فراغ في حياته؟ أهو أعزب؟ كم عمره؟

— هو أعزب. تجاوز الثلاثين من العمر. أفسده جان بول سارتر في نظرته الى الزواج وبالتالي الى الإرتباط بزوجة واحدة مدى العمر. اعتدادُه بحريته كبير جداً ولكن على طريقة سارتر.

— هل يرضى بمقابلتي؟

— يعتبر نفسه سويّاً أكثر منك ومني.

— كبرياؤه مصيبة جديدة تضاف الى سواها.

— ما رأيكُ في النهاية؟

— ابنكِ مصاب بهوس. بدأ هوساً بالعلم فما سدّ العلم الفراغ، ولا محا الضجر. انتقل نسبياً الى التبغ والقهوة وامتد الآن الى الحشيش والقمار. وبعد قليل سيمتد الى ما سوى ذلك، وربما الى شيء من العبث واللهو. زوجك أركضه عقلياً أكثر من الحد المعقول، فصار الضجر يتهدده كلما أخلد الى السكينة.

— هل للضجر كل هذا الأثر البعيد؟

— الضجر عدو لدود للإنسان. لو نشأ ابنك مؤمناً لوجد في إيمانه تعزية كبرى واطمئناناً رائعاً. الإيمان يغذّي، فعلاً وحقيقة، أكثر من الخبز. وهو العدو الصحيح للضجر.

— لماذا وكيف؟

— كل البشر بعد خطيئة آدم وحواء يقاسون من ضيق في النفس. يعيشون في صراع مع أنفسهم للخلاص من الضيق والضجر والفراغ. يتقلبون على نيران

الانتقال من تسلية الى تسلية ، ومن هواية الى هواية ، حتى إن بعضهم يصاب بالهوس . ولكن لا الحشيش ولا الخمر ، ولا القمار ، ولا المباذل ، وحتى ولا العلم بوسائل صحيحة لسدّ الفراغ .

— أَنبقى العمر كله مختنقين؟

— لا .

— أين النجاة؟

— إنها في شخص يسوع المسيح . وحده يسد الفراغ .

— كيف أستطيع أن أقود ابني إليه؟

— قد يكون التناقض بينك وبينه حائلاً دون التأثير عليه . ولكن أنصحك بالتفاهم على أمره مع زميله الدكتور كاسيانوس . فهذا رجل مؤمن ملتصق بالناسك بخوميوس في دير الحرف . فإن استطاع أن يصطحبه إليه هانت المسألة .

— كيف؟

— لبخوميوس قدرة روحية إلهية على إفحام المتشدقين عقلياً .

— سأذهب رأساً إليه . فليتدبرْ هو الأمر عبر صديقه كاسيانوس .

— هذا أفضل .

شكرت انسطاسيا لوقا ، وأدّت له بدل أتعابه ، وخرجت مسرعة تنطلق بسيارتها نحو دير الحرف .

الفصل الثاني

وصلت انسطاسيا دير الحرف ، وسألت عن مقام الناسك بخوميوس ، فاتجهت اليه والقلب يطفح آمالاً باسمة . وقفت أمام منسكه خاشعة ترسم إشارة الصليب . قرعت الباب بلطف ، ففتحه ، فوقعت على وجهها احتراماً لجلاله ووقاره . تفرس فيها وقال :

— ماذا تريدين يا عزيزتي؟

— ألتمس بركتك ورضوانك. فباركني وصلِّ من أجلي.

فرفع يمينه وتلا عليها هذه الصلاة وهي راكعة أمامه:

«الثالوث القدوس الذي صنعك على صورته ومثاله، وافتداك بدم الابن الحبيب، وقدَّس ضميرك برشّ الدم الطاهر، وجدّد خلقتك بالقيامة المجيدة، يملأ كيانك بالنعمة الإلهية وينصرك على الأهواء والشهوات والرغبات الممقوتة وكل القوى الشريرة، لتعيشي كل حياتك هيكلاً مقدساً طاهراً للثالوث المحيي».

فإذا بسلام علوي وفرح عظيم يغمران نفسها، فشعرت بأنها قد وجدت ضالتها المنشودة. ورفعت عينيها الى فوق وقالت له:

— أبتِ بخوميوس! الطبيب لوقا أعلمني بأن الدكتور كاسيانوس صديقك.

— بلى!

— وهذا صديق ابني الدكتور توما.

— ماذا تريدين؟

— ابني ملحد. لم يعتمد في طفولته بسبب ممانعة والده. يتشدّق بالعلم والفلسفة لكي يتهرب من التقوى.

— ما غرضك إذن؟

— أود أن تكلف الدكتور كاسيانوس أن يقود ولدي إليك.

— سيكون لكِ ما تريدين. إيمانك سيخلصك ويخلصه.

— هل تسمح لي بالاستماع إلى شيء من وعظك يُقيتُ قلبي؟

— يا عزيزتي. اعلمي أن وجودكِ على الأرض مؤقت. فكّري في هذا بلا انقطاع متذكرة الموت، فتعرفي أن كل مجد الدنيا زائل وباطل، وأن انسلاخ الانسان عن الدنيويات هو بداية طريق شاق يوصل الى النعيم الأبدي. فانفصلي عن

الدنيويات ، وضعي يسوع نصبَ عينيك ليلَ نهارَ في شوق الأم الحنون الى رضيعها ، فترثي الملكوت الأبدي . واحذري حشوَ بطنك بأطاييب الطعام الدسم فإنه عدو صفاء الروح .

— أبتِ ! صلِّ من أجل زوجي وأولادي ومن أجلي أنا الخاطئة المنقسمة داخلياً بين الله والدنيا .

— سأصلي من أجلكم . ولكن تخلصي من الانقسام الداخلي . فلن تستطيعي أن تكوني في آنٍ واحد لله ولسواه .

— صلِّ من أجل اهتداء توما . فصلواتكم مستجابة وأنتم الأكليروس بركتنا .

— هداه الله سواء السبيل . وصلِّ لنا كي لا نكون لعنة لكم .

— اقطع لي عهداً بأنك ستهتمّ بهدايته كابن حبيب لك !

— قلت لك أن إيمانك سيخلّصه .

— متى ؟

— آمني ، ولا تتقلقلي ، ولا ترتابي .

— قلبي مقروح .

— شفاه الله .

— أودعْني الله .

— أيها الثالوث القدوس إقبل ابنتك هذه وديعةً بين يديك لمجد اسمك القدوس . آمين !

— باركني ثانية .

— باركِكِ الثالوث القدوس بكل غنى لاهوته المحيي ، وقدَّس روحك وجسدك بنار لاهوته .

وخرجتْ من لدنه مغتبطة كل الاغتباط . وأجالت نظرها في جميع الاتجاهات فرأت نفسها على رابية من ربى غابة صنوبر واسعة . فأطلقت صوتاً :

— سبحانك ربي.

ورأت نفسها عاجزة عن العودة الى بيروت قبل أن تستمتع بمناظر خلابة. فامتطت سيارتها تنساب بين أشجار الصنوبر حتى أعلى فالوغا. فتنزلت تُجيلُ النظر طويلاً بذهول. وعادت أدراجها فمرت على قرنايل. واختارت المكان الأفضل للإطلال، فإذا بالمنطقة من ضهور الشوير الى صوفر وبحمدون وما يلي كل ذلك الى البحر غابة صنوبر تدفع المرء دفعاً الى رفع السبح والحمد لباري الكون. وتنشقت النسيم العليل، فانتعشت روحها وهلّلت وسبحت. وجاءتْ قريحتُها، وتفتّحَ ذهنها، فتساءلت في دهشة كبرى:

— كيف يستطيع المرء أن يشاهد هذه المناظر الخلابة، فيبقى مقبوض الذهن؟ كيف نضيع الوقت كله في هموم الطعام والشراب واللباس والكسب والبذخ وو... دون الالتفات الى عظمة الباري العظيم؟ أليس هو الذي صنع هذه المناظر الجميلة لكي نعرف أنه الجمال المطلق؟

أليس هو الذي جعل الكون بديعاً لكي نهيم به مشدوهين بحكمة صنعه للكون؟ لقد أخطأت إذا أهملت تدريب توما على تأمل حكمة الله في هذا الكون. الكون سفر من أسفار حكمة الله البديعة.

وإذ هي مدهوشة في تأملاتها سال دمعها مدراراً من الغبطة. وعجزت عن ضبط نفسها، فعادت الى السيارة تمسح دموعها وهي تبتهل:

— أبانا الذي في السموات! مجدتَ اسمك في هذا الكون المادي البديع. ومجدتَه في تكوين الانسان تكويناً فريداً معجزاً. فمجّدْه في تصرفات الناس وأقوالهم وأفكارهم، لكي يعرفوا أنك أنت الصانع العجائب وحدك، وأنك أنت وحدك الجدير بامتلاك إعجاب العقل ودهشة القلب. أنعمْ على توما بالاهتداء الى ضياء نورك.

وخرجت من السيارة ثانية لِتتَغَذّى بجزئيات المناظر. تلهّتْ قليلاً بها عن النظرة

العامة الذهولية ، ثم عادتْ الى رشدها لترى في الجمال سحراً لا علماً. فاسترسلتْ مجدداً في التهليل والتسبيح حتى عاد سيل الدموع مدراراً. فدخلت السيارة مجدَّداً تمسح دموعها السخية مشرقة القلب ، ومنشرحة الصدر ، ومنفرجة الأسارير. وأعياها الاغتباط ، فاتكأتْ على يدها اليمنى تغمض العينين للاستراحة قليلاً.

وبعد حين خرجت من السيارة لتسبّح الله للمرة الثالثة بأوفر نشاط بعد الاستراحة القصيرة ، فأنشدتْ :

— يا باري الأكوان ، يا رب الانسان ، يا معدن الجمال ، يا كنه الكمال ! لقد صنعت كل الأشياء بإتقان ، فأنبأتْ بحكمتك الفائقة الجلال. هل أبدعتَ هذا بلا حنان؟ فلماذا قفز الانسان وحده خارج دائرة الحنان؟ إني أسألك أن تردّه اليها بدم يسوع الرب الحنَّان ، ليبقى جمال خليقتك ناجياً من يد كل مفسد ضالّ. ولا تهمل عبدتك انسطاسيا وبيتها ، فإني أودعها لديك ، يا حافظ ، يا منّان !

وسالت الدموع ثالثة. وما استطاعت وقوفاً ، فدخلت السيارة لتقضي فترة سبات. إلا أن قلبها بقي يقظاً ، مشغولاً بالله أكثر فأكثر. وأفاقت بعد هنيهات لتقود سيارتها بين الأشجار حتى بيروت. فقضت يومها في شبه صمت ، لأن عقلها بقي في قرنايل ، بينما يرتاح جسمها في بيروت.

وفي اليوم التالي أفاقت باكراً للتأمل والصلاة والتفكير في شأن توما. فخطر لها أن تستعجل زيارة الدكتور كاسيانوس لبخوميوس. فأدارت ، في الضحى ، قرص الهاتف ، فبادرها بالقول :

— من الهاتف؟

— انسطاسيا.

— أسعد الله صباحك.

— وصباحك.

— كيف حالك؟

— جيد. كيف حالك أنت؟

— بألف خير.

— الحمد لله. ذكرتك أمس. هل تدري أين؟

— لا!

— أَعمِلْ فكرك ملياً.

— لا أستطيع جواباً.

— لدى بخوميوس.

— بخوميوس! يا الله!

— كيف حاله؟ وما سبب ذهابكِ اليه؟

— أمور مهمة قادتني إليه.

هو مشتاق إليك ويتوق إلى رؤيتك قريباً.

— هل هو محتاج إلي؟ ماذا يريد مني؟

— يبدو انه سيبحث معك أمراً ما.

— هل سررتِ بزيارته؟

— طار لبي فرحاً.

— لماذا؟

— لأنه صورة ناطقة عن الإنجيل. هل أصحابه عديدون في بيروت؟

— لا!

— كيف تعرّفت عليه إذن؟

— المؤمنون إخوة. يلتقون مهما بعدت المسافات.

— ضمني الى قائمة صحبه. فإني أعتبر نفسي تلميذة له.

— هل سحركِ منذ اللقاء الأول؟

— هو ساحر حقاً، ولكن بتقواه وصلاته، لا بمناورات الخداع.

— كم نحن بحاجة الى الإكثار من هؤلاء المسحورين، لنقضي على الفتور الروحي وانحلال الأخلاق؟

— يلزمنا مئات من أمثاله لهذا الهدف السامي.

— أمثاله، لا يُستَوردون بموجب توصيات تجارية. لا يستطيع الانسان أن يصنعهم كما يصنع البضاعة. إنهم بركة السماء لأهل الأرض.

— كم نحن أشقياء حتى إن بركة الله علينا مقصورة على شخص واحد!

— صلي لكي يرسل الله فعلة" الى كرمه. نفتقر الى المصلين الحقيقيين.

— هل تحلّ الصلاة هذا الإشكال؟

— نعم!

— كيف؟

— المصلون الحقيقيون يمونون على الله أكثر مما تمون الأم الرؤوم على ولدها البار.

— الصلاة مجهود الانسان بنعمة الله.كم نحن تافهون إذن بامتناعنا عن الجهاد في الصلاة!

— إننا خلاصات من التفاهة حقاً. أعمانا حب العالم فتركنا محبةَ الله.

— اعتبرني منذ الآن أختك في الصلاة. أَهدِ سلامي واحترامي الى بخوميوس والتمس لي منه الدعاء. وفقكَ الله.

— ذكركِ الله في ملكوته.

— ذكر كلينا. آمين!

الفصل الثالث

شُغِلَ بالُ كاسيانوس. وتمنى لو استطاع أن يذهب فوراً الى دير الحرف. إلا أن مشاغله في التدريس والبحث لا تسمح له بذلك قبل يوم السبت أو الأحد. وعاش قلقاً من الثلاثاء حتى يوم الجمعة في مشادة داخلية بين مشاغله والمثول بين يدي بخوميوس. وازداد القلق يوم الجمعة حتى إنه لم يستطع الاحتمال طويلاً، فآثر أن يذهب بعد الظهر ويقضي الليل في الدير.

وكان أمر. فتسلّق الجبل، لا على الأقدام، بل ممتطياً سيارته. وكان ذهنه في دير الحرف لا في السيارة. فوصل الكنيسة يصلي قليلاً. ثم توجه الى المنسك. قرع الباب رهبانياً وهو يقول: «بصلوات آبائنا القديسين...» ففتح له بخوميوس وعانقه وباركه. فابتدره كاسيانوس الكلام:

— لماذا جَدَّدْتَ في طلبي؟

— أأعلمتك انسطاسيا؟

— نعم!

— أهلاً وسهلاً!

— هل هناك أمر ذو بال؟

— أتت تعرض عليّ قصة ابنها توما وإلحاده. فأعلمتني بأنك زميله وصديقه.

— نعم! ولكن الرجل موغل في تفكير بعيد عن الله جداً. لا أظن أننا نستطيع ثنيه عن ضلاله.

— أولاً: من قال إننا نحن اللذين يثنيانه؟ ثانياً: من قال لك إن ثنيَهُ مستحيل؟

— أنا أؤمن بأن الله قادر على كل شيء، وبأنه يفعل بواسطتنا. فمن أنفسنا لا نملك قوة في هذا الباب. الله هو مصدر قوتنا.

— إذنْ، صلِّ لكي يتمجّد الله في مسعانا.

— ماذا تريد مني؟

— أن تُحضِره إليّ؟

— غداً أو بعد غد، نحضر كلانا إليك.

— أجّل ذلك الى السبت القادم لكي أستعدّ للأمر بالصوم والصلاة.

— هل مسَّه شيطان لكي تبالغ في الاستعداد؟ الصوم والصلاة يطردان الشيطان كما قال يسوع. ما بالك؟

— الكبرياء التي تنفخ المتعلمين والهوس الذي يضرب الهاوين هما شيطانيان. لا برء منهما إلا بالصوم والصلاة. لا يقطع دابرهما وعظٌ وإرشاد عاديان

— هل أنا أيضاً مُعَرَّض لهذا الخطر؟

— نعم! إلا إذا استمررتَ في تواضعك وخضوعك لناموس الله.

— صلِّ من أجلي، يا أبتِ!

— أضعك وديعة بين يدي يسوع.

— سلْه أن ينصرني دوماً على الكبرياء، وأن يصرف إليه وحده هيامي، لئلا أقع في هوس ما مما يصيب الذين يعشقون ما للأرض دون الله.

— اركعْ لأصلي لك: أيها الثالوث القدوس اغرس تواضع الرب يسوع الذي أخلى ذاته صائراً في شبه الناس متخذاً صورتهم، في قلب عبدك كاسيانوس. اجعلْه صورة كاملة ليسوعنا الكامل في الوداعة وتواضع القلب.

وبقي كاسيانوس راكعاً خاشعاً دقائق لا يملك قوة للنهوض، لأن نعمة خاصة حلت في قلبه، فجعلته يميل الى تقبيل الأرض بجبينه تواضعاً ورهبة، ففعل. ثم دار الحديث بينهما عن توما، فقال بخوميوس:

— إن والدة توما تخشى الله. وواجبنا يقضي بأن نُعين هذه الأخت المنكوبة.

— ما هي نكبتها؟

— توما.

— هل تعتبر توما نكبة؟

— بل جحيماً.

— لماذا؟

— الشيطان يصدّق بأن الله موجود. الملحد كافر بوجود الله. أيهما أشد بؤساً؟

— الملحد جاهل، أما الشيطان فعالم بوجود الله قابع في الشر.

— أجدتَ. ولكن يبقى الملحد جحيماً، لأن نكران الله جحيم. فإن كانت معرفة الله فكراً وقولاً وعملاً هي النعيم، فهل يمكن أن يكون جحوده سوى الجحيم؟ أنت اليوم مسؤول عن إخراج هذا الضال من الجحيم. وأنا سأصلي من أجلك لكي تنجح في مهمتك.

— كم من أناس يعيشون نظرياً أو عملياً بدون الله ونحن عنهم غافلون!

— ويا للأسف الشديد!

— أما من باب للخلاص من الفتور والإهمال، أما من باب للإنقاذ؟

— لا!

— أنت يائس.

— لست بيائس من الله. ولكني يائس من تفاهة الوعّاظ والمعلمين.

— بينهم متعلمون كبار.

— هل الدين علم يسحر الألباب؟ نحن بحاجة الى رسل من أمثال بولس أو أبولّس. اقرأ أعمال الرسل وأمعنِ النظر في حماستهم تعرف أنَّ ضعف الإيمان عندنا ناتج عن فقدان النَّفَس الرسولي والغيرة الرسولية. الاحتراف قتل حرارة الروح. العادة طغت على العفوية. الاعتناء بصناعة الألفاظ وتنميق الكلام وسحر البيان قتل الحماسة الرسولية.

— الانحطاط قد تفشّى إذن.

— وضرب أطنابه في كل مكان حتى في أوساط الرهبان.

— وكيف نخلص؟

— باستعادة نموذج الرسل والآباء.

— وهذا يتطلب عنصرة جديدة أو أمهات فاضلات.

— العنصرة لم تنقطع قط. كل الزمان منذ حدوثها في علية صهيون هو عنصرة. الله لا يتبدل ولكن الناس تبدلوا. الآباء والأمهات فسدوا، فنشأ الأولاد في كنفهم فاسدين.

— الشفاء مستحيل.

— أمام الصلاة تذوب جميع المستحيلات.

— أين المصلّون؟ عددهم لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة.

— علينا أن نسعى لإيجادهم. استرح في غرفة الآن لتستطيع أن تنقطع لله جيّداً غداً وبعد غد.

— صلِّ من أجلي.

— حفظك الثالوث القدوس في ذاته لمجده وخلاص روحك يوم الدين.

— آمين! لكلينا وللناس أجمعين!

قضى السبت والأحد مختلياً لربّه يصلي من أجل اهتدائه الى أحسن السبل لقيادة توما الى بخوميوس. وانصرف هذا الى انقطاع كامل عن الطعام والشراب، متهجّداً، يتلو الصلوات آناء الليل والنهار.

الفصل الرابع

صباح الاثنين باكراً عاد كاسيانوس الى بيروت ممتلئاً نعمة وشاكراً الله على إنارة ذهنه وقلبه في تلاواته للصلوات خلال اليومين المنصرمين. وقاد سيارته بين الصنوبر المصطف على جانبي الطريق، كأنه موكب صامت يمجد الله بقامته الفارعة وأغصانه الرفيعة المتدلاة كأنها شآبيب رحمة ولطف من السماء. ولم يكترث كثيراً لإيجاد المدخل الى الحديث مع توما، ممتلئاً من اليقين أن يسوع، الذي أوصى تلاميذه بأن لا يهتمّوا بما يجيبون أمام الحكام والولاة، سيجعل روحه القدوس هادياً له في مهمة إخراج إنسان بائس من الجحيم. ولم يصطنع الفرص. فترك الأمور تجري على طبيعتها حتى يأتي الحلّ عفوياً وابناً للصلاة.

ودخل غرفة الأساتذة عند الظهر فلقي توما، فسلّم عليه، وصافحه بحرارة معتدلة، وسأله أن يرافقه ليتندَّرا الحديث. فلبّى توما الطلب، وجلسا معاً في زاوية من الغرفة. ثم انتقلا الى حديقة الجامعة يتمشيان بين الأشجار والزهور والورود.

طرق كاسيانوس مسائل التدريس، وصعوبة توجيه طلاب هذا الزمان، وفساد روح الحرية المتفشي المتضارب كلياً مع حاجة المجتمع الى النظام والتماسك.

عارضه توما بشدة متمسكاً بمطلقية الحرية. فردّ عليه:

— الحرية التي تنادي بها تجعل الانسان فرداً كلاً قائماً بذاته غير قابل للتفاعل مع الغير، بينما أهمّ شيء في صلات بعضنا بالبعض الآخر هو أن يستطيع كل واحد منا أن يكون خليلاً للآخر. المخاللة أمر جوهريّ وحيوي. إن لم تستطع الاندماج بالغير والنفوذ اليه كنت شجرة فريدة في صحراء.

— ماذا تعني بالمخاللة؟

— دعنا نستفتِ المعجم. فإن معانيها لطيفة.

ذهبا معاً الى المكتبة وتناولا الجزء الأول من «لسان العرب المحيط». قرأ كاسيانوس في الصفحة ٨٩٤، العمود ٣:

«الخُلّة بالضم : الصداقة والمحبة التي تخلَّلت القلب فصارت خِلاله أي في باطنه — والخليل : الصديق ، فعيل بمعنى فاعل . وإنما قال ذلك لأن خُلّته كانت مقصورة على حب الله تعالى ، فليس فيها لغيره متسع ولا شَرِكَة من محابّ الدنيا والآخرة ، وهذه حال شريفة لا ينالها أحد بكسب ولا باجتهاد ، فإن الطباع غالبة ، وإنما يخص الله بها من يشاء من عباده — المرء بخليله ، أو قال : على دين خليله ، فلينظر امرؤ من يخالل» .

وتناول توما المعجم فقرأ في العمود الثاني :

«الخُلّة : الصداقة المختصة التي ليس فيها خَلَلٌ تكون في عفاف الحب ودعارته ، وجمعها خِلال ، وهي الخَلالة والخِلالة والخُلولة والخُلالة» .

وقلب كاسيانوس الصفحة فقرأ في العمودين الثاني والثالث من الصفحة ٨٩٣ :

«خلّ الشيء فهو مخلول وخليل ، وتخلّله : ثقبه ونفذه — تخلَّل الشيء أي نفذ» .

وأغلق المعجم وقال :

المعنى الرئيسي إذن هو التداخل والتنافذ والتشابك في الصميم والعمق ، بحميمية تبلغ أحياناً الحد الأقصى حين الانصراف الكامل الى الله في مودّة هي إنعام لطيف منه .

— لا تنحُ المناحي الصوفية . دعنا في الواقع الحي الملموس .

— المعاني واضحة . الخلة تحتمل المعنى العفيف وضده . سأقرأ عليك أيضاً نتفاً مما جاء في كتاب «رابعة العدوية» للدكتور عبد الرحمن بدوي .

— اقرأ .

تناوله وتلا من الصفحة ٦٣ :

«أما الخلّة فهي مشتقة من تخلّل الشيء في الشيء . وسمي الخليل خليلاً لتخلّل خليله في قلبه ، فوجوده مستهلك في وجوده ، فإذا تكلم تكلم فيه ، وإذا سكت فهو نصب عينيه في كل حال . وأنشدوا في ذلك :

قـد تخللت مسـلك الـروح مني ولـذا سمّي الخـليـل خـليلا

ثم تلا من الصفحة ٦٥ :

«إني جعلتك في الفؤاد محدِّثي وأبحت جسمي مَن أراد جلوسي

فـالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي»

فرابعة كانت تولي ما يسميه المتصوفون في هاتين الصفحتين «منزلة الخلة» و«مقام الخلة» أهمية كبرى. عشقُها لله دفعها الى التبتّل.

— هل قال المتصوفون المسلمون بالتبتّل؟

— نعم! منذ القرن الثاني للهجرة سرى بينهم هذا التيار. فالتبتل أمر طبيعي لمن جرفه عشق الله فأنساه الدنيا.

— ولكن هل تتفق الخلة والحرية المطلقة؟

— أين المطلق على الأرض؟ نحن عبيد أهوائنا ورغباتنا ونزواتنا وشهواتنا وأفكارنا وهواياتنا. هل تستطيع أن تبقى شهراً واحداً عازفاً عن المطالعة والكتابة؟

— لا!

— أنت عبد لهوايتك إذن؟

هل تستطيع إيقاف هوسك باللفائف والقهوة؟

— لا!

— أنت عبد لهما. هل يستطيع المقامر المدمن أن ينقطع عن المَيْسر، ومدمن الحشيش أن يوقف التدخين؟

— لا!

— إنهم عبيد. وكل من لا يستطيع السيطرة على نفسه في أي أمر من الأمور هو عبد. الحرية الحقيقية هي التي يكتسبها المرء عندما يتحرر من أهوائه جميعاً، حينما يتخذ قراره بلا قيود داخليّة وفي حقل الخير. فكل من يفعل الشر هو عبد وغارق في العبودية.

— كل البشر عبيد إذن؟

— نعم!

— في المحبة نفسها عبودية؟

— لا!

— المحب قوة ضاغطة على حبيبه.

— برضاه لا كرهاً عنه.

— يبقى هناك عنصر إكراه وبخاصة إن كان المحب أو الحبيب غير ناضج.

— هل من كمال على الأرض؟ لماذا تعيش في الخيال مثل كل مدمني المطالعة والفكر؟ إنزل إلى الأسواق وتعرّف على الناس في بؤسهم الوجودي وضيقهم اليومي. أرستوقراطية مدمني الفكر رهيبة. بحق قال روبسبيير إن الإلحاد أرستوقراطي وخاص بنفر معين.

— هل يعدّل الاحتكاك بعامة الناس مواقفي؟

— نعم! أنت تعيش في برج عاجي. اختلط بالناس وتعلّم أن تعيش بينهم، لترى أن الواقع مختلف عن النظري، وأن تعاطف الناس حيوي لهم مثل الخبز والماء. وكثير منهم يفضل العطف والحنان على الخبز والمال.

— فتحت ذهني على آفاق مغلقة.

— هل أنت مستعد لنزهة في الجبل يوم الأحد؟

— بكل سرور.

— سأمرّ عليك في ختام القداس الصباحي أي حوالي التاسعة والنصف. فإلى اللقاء.

منذ ذلك الحين أخذ توما يتفرَّس في وجوه البشر، ويراقب أحوالهم وعلاقاتهم، ويتجوّل في الشوارع والساحات، ويمر على المخازن ليتعرّف على كيفيات تعامل

الناس. ففرح جداً لدخوله ميدان العلاقات البشرية والتعرف على تشابك أحوال الناس.

وكانت انسطاسيا تصلي، فإذا بجرس الهاتف يرن. تناولته، فإذا بكاسيانوس يخبرها بأنه زار بخوميوس، والتقى توما، وسار خطوة في المهمة الملقاة على عاتقه. ففرحت جداً وشكرت له عنايته بالأمر. وأعلمته أنها منصرفة الى الصلاة حتى يحقق الله حلمها. ورجته أن يساهم معها في هذا الجهاد. فأعلمها أن بخوميوس منقطع الى الصوم والصلاة من أجل تحقيق الهدف المنشود. فهللت واطمأنت الى النتيجة المرجوة.

الفصل الخامس

وفي ضحى الأحد مرّ كاسيانوس على توما، فقاده في سيارته الى الجبل لافتاً نظره الى جمال الطبيعة وعذوبة الانسياب بين أشجار الصنوبر المشرق خضرة.

وأجال توما نظره في كل الاتجاهات مدهوشاً. فقد انطلق فعلاً من قوقعته الداخليّة الى تأمّل الإنسان والمخلوقات. ومرّا بدير الحرف. فقال كاسيانوس له: في هذه البلدة ناسك جليل واسع الحكمة والتمييز، يقرأ ما في النفس بعمق عجيب.

فقال توما:

— هل هو قادر على قراءة أعماقي وكشف غوامض أحوالي؟

— نعم! ربما مررتُ عليه أثناء العودة. المسألة مرهونة بالوقت. فإن انتقلنا من قرنايل الى ضهور الشوير ابتعدنا عن دير الحرف. ولكن إن تناولنا الغداء في فالوغا أو حمانا مررنا بدير الحرف ونحن عائدان الى بيروت.

وقاد كاسيانوس سيارته وسط الصنوبر الى مشارف قرنايل وفالوغا، وتولّى تفتيح عيني توما على ما في ساحة النظر من مناظر خلّابة تشرح الصدر وتطرد الهموم. فتنفّس توما الصعداء جذِلاً. وزارا شاغور حمانا وانتقلا الى ظهر البيدر فصوفر.

وطرح كاسيانوس على نفسه مسألة اختيار مطعم للغداء. فاستبعد بحمدون وصوفر وحمانا ليكون مضطراً حين العودة الى المرور بدير الحرف.

قال لتوما:

— ما دمنا في أواسط أيار وحلاوة الربيع في الجبل، فالغداء في الفندق المطل على المنطقة كلها يمتاز بجمال المناظر والهدوء المريح للنفس. ومن شاء منا أن يقضي فترة قيلولة استطاع ذلك وسط النسيم العليل.

أيّد توما الاقتراح، فانتقلا الى الفندق يستمتعان ببدائع الكون الجميل، في يوم ليس بحار في الجبل ولا بارد، إنما هو لطيف.

وأنعش المناخ شهيتيهما، فاقترح كاسيانوس أن يتناولا الطعام باكراً. فتناولاه في الساعة الثانية عشرة وأعينهما شاخصة الى الجبال والتلال والأودية المكسوّة بخضرة الصنوبر وسواه. وأخذ النعاس منهما كل مأخذ، فاحتل كلّ منهما سريراً في الفندق. وأفاقا حوالي الساعة الثالثة مرتاحي البال قريري النفس.

عرض كاسيانوس على توما زيارة بخوميوس، فوافق. انسلّا الى داخل السيارة، فانسابت نزولاً تتلوّى في المنعطفات الجبليّة كأنها ترقص بين الأشجار. مضيا الى المنسك. قرع كاسيانوس الباب، ففتح له بخوميوس، فاستقبلهما ببشاشة، وقال:

— أهلاً وسهلاً بكما يا مهجة فؤادي! ادخلا يا حبيبي قلبي.

تفرّس بخوميوس في توما. أما توما فدهش لهزال بخوميوس جسمانياً وانتشار الفرح والاغتباط والبُشْر على وجهه، فضلاً عن تمتّعه بخفة الروح، ورشاقة الحركات، واستشراق البشرة.

وخطر له فوراً أن الحسابات الطبية للحاجات الغذائية تصطدم بتكذيب قاطع في جسم بخوميوس الشاحب اللون، المؤلف من جلد وعظام، بينما يتمتع في الستين من العمر بحيوية الشبان.

سأل بخوميوس كاسيانوس عن توما، فقال:

— صديقي الدكتور توما زميل لي في تدريس علم الحياة والبحث والتنقيب في المعهد. وقد أتينا المنطقة في نزهة، فعرضت عليه أن نزورك، فقبل. وهو يهتم بالفلسفة أيضاً.

— أهلاً وسهلاً بكما. إني أرى يسوع في وجهيكما الحبيبين.

ولاحظ توما أن روح بخوميوس تنسكب في كلامه، فتعجب لهذا الحضور الكامل في القول والحركة، ولهذه العواطف الطافحة من جسم هزيل. وقال في نفسه:

— هل يمكن أن تكون هذه الحضرة القوية لشخص بخوميوس إفرازاً من إفرازات هذا الجسم الضامر؟ هل قلة الطعام هي سبب هذه النباهة واليقظة؟

قال بخوميوس لتوما:

— إلى أين وصلت في أبحاثك عن أصل الحياة وفلسفة الوجود؟

— ما زلت أتسكّع مفتّشاً. ولكني أؤمن بالعلم.

— هل تتصور أن العلماء سيكونون يوماً قادرين على إنتاج خلايا حية تتطور خلال تسعة أشهر، لتصبح بشراً تامّين قادرين على الفكر والنطق بألوف اللغات واللهجات المنتشرة في العالم؟

— لا! لم نكتشف بعد كل عناصر الخلية. وجسم الانسان أضعف من جسم الحيوان. الطيور الكاسرة تنهش الجِيَف المنتنة التي لا يطيق المرء رائحتها ولو عن بعد بعيد. فكيف الحال لو ذاق لحمها؟ أما تقتله الجراثيم المنتشرة فيها؟ هذه المناعة لدى الطيور تخزي هشاشة جسم الانسان.

— ما هي الكتب الفلسفية التي تستهويك؟

— كتب سارتر ونيتشه أولاً وباقي الفلاسفة ثانياً.

— هل أنت وجوديّ؟

— نعم!

— إلا أن سارتر ناكر للوجود وقائل بالعدم. فكيف تعتبر نفسك وجودياً؟
مؤسس الوجودية هو سورين كيركغارد القسّ المسيحي. سارتر سرق شيئاً منه ومن مارتن هايديجر وادّعى الوجودية التي هي نحر الوجود الحقيقي.

— أنت هنا ناسك. فمتى طالعت الفلسفة؟

— انقطعت للنسك منذ عشر سنوات. كنت قبلها راهباً طيلة ٢٠ عاماً. فتسليت في المطالعات المتنوعة مثل كل أبناء هذا الزمان، المحبين للتبرّج بالمعرفة.

— أنت كيركغاردي إذن؟

— لا! أحب كيركغارد الذي تشعّ منه العبقريّة— بالرغم من مزاجه السوداوي— أكثر من سائر الوجوديين.

— هل أنت من أتباعه؟

— لا! يبقى تفكير الوجوديين فلسفياً الى حدّ كبير. المعرفة كمعرفة عقلية لا تصنع الانسان الكامل. أنا وجودي شخصاني على مذهب آخرين.

— من هم؟

— آباء الكنيسة وضعوا خير انثروبولوجية. آباء البرية وضعوا أسساً لخير وجودية تعالج أخطر المسائل التي تتعلق بمصير الانسان الذاتي الداخلي.

— أين أستطيع الوقوف على ذلك؟

— طالع في كتاب «سر التدبير الإلهي» نبذات عن أنثروبولوجيتهم. أما وجودية النساك فتحتاج الى عشرتهم ومطالعة أقوال أقطابهم.

— ما هي في نظرك أخطر قضايا الوجود؟

— إنها مسألة تطهُّر الإنسان من الآثام جميعاً وتطويع عدوانيّته وتدجينها حتى يتمّ تحويلها— قدر المستطاع— الى إيجابيات في المحبة والعمل الصالح.

— الوجوديون طرقوا بقوة مفهوم «القلق»

— في لسانهم اتخذ معنى غير المعنى المعروف لدي النساك. حلولهم عقلانية أكثر منها حياتية.

— ما هي حلول النساك؟

— الفلاسفة يتجنبون الحديث عن حالة الانسان الخاطىء. فالخطيئة جرح بليغ دامٍ يمزّق الانسان داخلياً. الخطيئة هي أساس بلاء كل إنسان. العقلانيون يضخمون ذاتهم عقلياً، ليزيدوا في الطين بلّة. الروحانيون واقعيون. يعرفون ضعفهم فيتواضعون. الخطيئة جرح في وجودهم. يدركون أنهم عاجزون عن سد الفراغ بطاقاتهم الخاصة، فيلجأون إلى الله. العقلانيون يحتالون على الوجود. نحن نواجه الواقع، نواجه الغرائز والأهواء والرغبات لنحوّل طاقاتها الى الله.

— هل تعانون شعوراً بعدم الاستقرار؟

— الايمان مصدر للاطمئنان والاستقرار، ولمحاربة القلق والضجر والملل والسأم، وللصبر على نكبات الزمان، وللتجلّد على الصعوبات.

— والفراغ؟

— الإيمان امتلاء. أما غير المؤمن فيتغنّى في ابتكار الأساليب والحيل لسد الفراغ. مَقْتُ سارتر للوجود طبيعي لدى غير المؤمن. الحياة محفوفة بالمخاطر والمتاعب. والعمل يسلّي الانسان إلا أنه لا يسدّ الفراغ. الهوايات تسلّي الإنسان على حساب نحره لذاته. تستنزفه عبثاً.

— كيف تراني؟

— أراك قلقاً في العمق، مهما حاولت في السطح أن تغطّي فراغَك.

— العلم يسدّ لديّ فراغاً كبيراً.

— متى تشبع منه؟

— ما زلت في حرف الألف منه.

— ستبقى معذباً بشعور نقص فاحش يستفحل يوماً بعد يوم، حتى إذا ما جاءت الساعة الأخيرة وجدت نفسك معدماً مدقعاً.

— هل لديك من نصيحة عاجلة ريثما نعود اليك ثانية؟

— خذ العهد الجديد وطالعه بتواضع، فإن عرفت يسوع حق المعرفة قمت من الموت الى الحياة الحقة.

تناوله شاكراً واستأذنه للانصراف. وخرج كاسيانوس ليدخلا السيارة وليتنزّها قليلاً قبل العودة الى بيروت.

صمت كاسيانوس ليستمع الى ما يمكن أن ينوِّه به توما. صمت هذا متوقعاً أن يباشر ذاك الحديث، فلم ينبث ببنت شفة. وأخيراً فتح توما فاه فقال:

— هذا الناسك يقلب مفاهيمنا البيولوجية عن حاجات جسم الانسان. فهو موجود خارج الجسد أكثر مما هو موجود في الجسد. ما مهنته؟

— مهنته الصلاة والاكتفاء بأقل قدر ممكن من الطعام.

— الصلاة جهد عقلي مرهق. فكيف يتحمل جسده هذا الجهد بدون شبع من الأطعمة؟

— للنساك والمتصوفين قالب خاص لا يخضع لمفاهيمنا البيولوجية إلا بنسبة محدودة.

— عبثاً يسعى الناس وراء السعادة والنعيم. عبثاً تعِدُنا مدنية العصر بالغبطة. كلما تعقدت ازداد إرهاقنا. وكلما تعقدت الحاجات ونمت الرغبات تم استهلاك الناس بأبخس الأثمان.

— قبل سنوات قرأت في جريدة أن المرضى العقليين في الولايات المتحدة يؤلفون عشر السكان، ناهيك عن أضعافهم من المرضى النفسيين والمجرمين وسائر المصابين بعاهات نفسية من جميع الألوان.

— المدنية تكذب علينا إذن؟ زعامة أميركا العلمية للعلم زادت من متاعب الإنسان إذن؟ ناهيك عن زعامة روسيا.

— هذا هو الواقع. الثقافة، بالمعنى الواسع للفظة، هي عبء ثقيل ونير قاسٍ.

— ولكن نير لا بد منه في عصرنا. على كل حال، هذا الناسك سيقلب الكثير من مفاهيمنا.

— متى شئتَ زيارته رأيتني طوعُ بنانك.

— أشكر لك هذه المناسبة اللطيفة. نعيش في أجواء، هموم الناس فيها أكل وشرب واكتساء وكسب ولهو ونفعيات. لم أشاهد بعد إنساناً ارتفع فوق كل ما هو جسداني وعابر. إني مدين لك بهذا الاكتشاف الكبير. البشر نفعيون أنانيون. استقبال بخوميوس لنا وحده حتى اليوم أذاقني طعم انفتاح صدر الانسان للانسان، لمجرد الانفتاح، دون أية أهداف نفعية أو أنانية.

— يا توما! الانجيل منجم الثروات الروحية التي لا يستفيد منها السطحيون والمنافقون والكذابون. النساك والمتصوفون أقبلوا عليه بتجرد وشوق الى امتصاص الحقيقة واحتضانها، فاتخذ في حياتهم معنى لا يدركه التافهون من أدعياء التبعية ليسوع.

— سأولي يسوع اهتماماً فائقاً.

وصلا بيروت فأودع كاسيانوس توما في منزله وودَّعه. دخل توما البيت وقلبه يتمخض. أغلق باب مخدعه وانصرف الى مطالعة الإنجيل حتى ميعاد العشاء، ثم عاد اليه حتى نهاية السهرة.

وفي اليوم التالي دخلت أمه غرفته، فذهلت لرؤيتها العهد الجديد على طاولته. قبّلته خاشعة وراسمة إشارة الصليب. ثم شكرت الله على بداية التحول. رتّبت غرفته، وصمّمت على الوقوف منه موقف المتفرج حتى يفاتحها الحديث.

وعاد ظهراً الى الانجيل. وكذلك كان يفعل في أوقات الفراغ كل يوم. فأخذت والدته تلاحظ ارتسام عبارات الانفراج على تقاسيم وجهه. وتركت له مبادرة الإبتداء بكشف نفسه لها.

وفتحت مساء الجمعة باب المخدع فدعاها للجلوس الى جانبه والنظر الى ما بين يديه.

أبدت إعجابها الكبير بهذا التطور الجديد، وشجعته على المضي قدماً، فطلب أن تستمع الى تلاوة فصل. فتلا عليها الفصل ١٧ من يوحنا. وإذ كان يقرأ كانت عيناه تغرورقان بالدمع. سرّه الإيقاع العلوي في الفصل، والرفعة في الموضوع. أحسَّ بأن يسوع يناجي من مركزٍ عالٍ الآب السماوي، وأن عالم العلويات قد عانق عالم السفليات.

شاركته والدته في سكب الدموع وهي جذلة. وتمنت له اطّراد التقدم. ومن فرحها خرجت لتحمل البشرى الى كاسيانوس، فاتصلت به هاتفياً وأعلمته بما شاهدت وسمعت، وأوصته بالكتمان.

وأحسّت بأن اللجوء الى بخوميوس للاستزادة من اهتمامه ضروري. فقررت أن تزوره في اليوم التالي. ذهبت بسيارتها تعلمه بالأمر وتلتمس المزيد من صلواته البارة. فهنّأها على التقدم المحرَز وطمأنها الى أن الله لن يهمل أحشاءها الملتهبة شوقاً الى تحقق هداية ولدها.

أما توما فأخذ شيئاً فشيئاً يطرق المواضيع الدينية مع كاسيانوس فجرى بينهما في ذلك اليوم الحوار التالي:

— لم أعد أستطيع التصديق بأن الحياة نشاط مادي أو أن الانسان مادة صرف. فالفكر لا يقع تحت المجاهر. وليس للحيوانات شخصية ولا شعور بأن لها «أنا». ولا يعرف عالم الحيوان الضمائر: «أنا، أنت، هو، نحن، أنتم، هم.» الخلاف بين الانسان والحيوان جذري مهما تشابهت الأجساد والتركيب الكيماوي.

— لستَ بعيداً عن تبدّلات جذرية في التفكير.

ـــ حَشَونا رؤوسَنا بمعطيات المجاهر، وحصرنا عيوننا بمشاهداتنا المجهرية، فلم نعرف ما هو الأبعد من المجهر. أضعنا الانسان. جعلناه قطعة لحم بسيطة، فقلنا إن الإنسان مركّب كيماويّ ـــ بيولوجي. هذا التشريح الفاسد أفقدنا النظرة الشاملة: الإنسان أبعد من تركيبه البيولوجي ـــ الكيماوي.

ـــ هل توصلت الى الإيمان بوجود الخالق؟

ـــ لم أعد أشك بأن خَلْقَ الإنسان عمل فوق طاقة الكون المنظور، وأن الإنسان تراب في جزء منه لا في مجموعه، وأن التراب فيه ليس تراباً عادياً إلا بعد الوفاة. فهو جزء من شخصه الحي.

ـــ وماذا بعد؟

ـــ أقرأ يومياً فصولاً من الإنجيل.

ـــ ما رأيك؟

ـــ لم أستكمل الصورة التي أسعى الى تأليفها في ذهني.

ـــ مشاعرك الأولى؟

ـــ في يسوع سحر شخصي. قد يستطيع المرء أن يعادي المسيحية، ولكن من الظلم الفاحش أن يتجرّأ أحد على معاداة يسوع.

ـــ تابع مسيرتك. متى تشاء أن تزور بخوميوس؟

ـــ لا مانع لديّ من زيارته يوم الأحد. هذه المرة نذهب بسيارتي.

ـــ مرَّ عليّ بعد العاشرة صباحاً.

ـــ بكل سرور. وإلى اللقاء.

الفصل السادس

لاحظ سليمان صديق توما أن هذا يخفف كمية ما يتناوله من خمر، وما يدخنه من لفائف، ويمتنع عن القمار. ولاحظ أيضاً انفراج أساريره، واعتلاء مشاعر الغبطة وجهه، واعتداله في المطالعة والبحث. توهم أن مللاً أصابه من كل شيء، فأخذ يعزف عن عاداته. واستغرب بعض غياب زحمة الهموم عن صدره. فقد اعتاد أن يراه مهووساً في انشغالاته مضطرباً قلقاً عجولاً كأنه سيُمنى بخسارة فادحة إن لم يهرول مسرعاً في مسعاه، ولو كان لأتفه التوافه.

تركه وشأنه على أمل أن يعود الى خطهما في بعض اللهو وتوافه المتع. ولكن خيبة آماله أخذت تزداد شيئاً فشيئاً. فاعترضه وسأله:

— دهتْك داهية، فما بالك قد تركت قسماً من مِتَعِك؟

— إني منشغل بشيء آخر.

— ما هو؟

— إنجيل يسوع.

— أتؤمن بالخرافات؟

— لا تتطاول على كرامات العظام.

— وهل تعتبر يسوع عظيماً؟

— وهل عرف التاريخ عظيماً سواه؟

— الفلاسفة والعلماء ودهاة التاريخ.

— إنهم عبيد، أما هو فسيد.

— أأنت جادّ فيما تقول؟

— نعم! انخدعت دهراً بالعلم والفلسفة بينما الإنجيل صغير وفي متناول كل يد. ولا يحتاج الى فلاسفة أو علماء لأن الأميين البسطاء قادرون على فهمه. هناك إجماع

على أن الأسقف بوسيه الفرنسي لم يرتكب أية غلطة لغوية. ومع ذلك لم تعثره بساطة لغة الانجيل، فامتدحَ لبابه مذهولاً.

— وهل عزمت على تطليق ماضيك؟

— لا أستطيع جواباً الآن. لم أنضج في الانجيل. أطلب الجواب بعد نضوجي.

— لن أطلبه. فالحياة هي الحياة. يسوع يبلبل الحياة ويعيق نموها الطبيعي.

— بعد نضوجي سأعرف إن كان يعرقلها من أجل حياة أفضل، أو لمجرد العرقلة كمعقِّد قد عقّد الأمور.

— قتلتَ نفسك بالكتب. والآن ستقتلها بالانجيل وبيسوع.

— قد أجدها بينما قد أضعتها قبلاً.

— لا خير منك يرتجى. أخذت السوسة تنخرك.

— نِعْمَ السوسة هذه السوسة.

— هل جُنَّ عليك؟

— نِعْمَ الجنون هذا الجنون.

— أعرف تنقلك بين ألوان من الهوس بين الفينة والأخرى. لن يطول هذا الليل.

— قد يكون نهار لا يعقبه ليل.

— أما من حدٍّ لتطرّفاتك؟

— ما زلت أفتّش. فلماذا تقسو عليّ؟

— أخشى عليك من إرهاق جديد.

— هل تراني منقبضاً؟

— لا !

— فافرحْ إذن وهلّل لوضعي.

— الديانة قيود. فرحك مؤقت.

— قلت لك إني ما زلت أفتش. فأنا باحث. لي الحق في أن أبحث. الديانة ميدان مثل كل الميادين.

— ولكن ميدانك هو المجهر لا الغيبيات.

— البحث هو البحث. القيود والشروط المسبقة تضلّل الناس. الأفكار المسبقة سلاسل. ميدان الفكر رحب. لا يجوز تقييده سلفاً.

— التفاهم معك مستحيل قبل أن تبلغ نهاية الشوط وتمجّه. وداعاً.

الفصل السابع

مرّ توما على كاسيانوس في الموعد المضروب، وانطلقا معاً في شعور اطمئنان، دعاهما الى صمت موقت، كأن السلام الداخلي خير لغة بين البشر. وخطر لكاسيانوس أن التنزّه قليلاً، مثل المرة السابقة، خير من ازدحام الأمور على صدر توما. فاقترح عليه أن تكون هذه الرحلة نسخة عن السابقة. إلا أن توما أبى وطالب بأن يقابلا بخوميوس صبحاً وبعد الظهر. وصلا اليه، وقرعا الباب، ففتحه، واستقبلهما بترحاب مزدوج بالنسبة للمرة السابقة، وسجد أمامهما. فسأله توما:

— لماذا سجدت سجدة أقوى من سجدة المرة الماضية؟

— كنت أجهلك. وفي هذه الديار أضعنا التراث. أما أسلافنا الصالحون من النساك في بريّة مصر، فقد ذكر عنهم القديس كاسيانوس — شفيع صديقنا الحبيب رفيقك — أنهم كانوا يسجدون أمام الضيوف، معتقدين بأنهم يستقبلون يسوع المسيح في شخص الزائر.

— هل أنا الآن بالنسبة اليك يسوع؟

— نعم !

— لماذا لا يتم طرح هذه القيم في التداول؟ البشر ينهش بعضهم بعضاً بسبب جهلهم هذه القيم.

— الإنجيل منتشر في كل مكان. إلا أن الناس يقرؤونه سطحياً ، فلا يعلق في ذهنهم كنهه . وربما شوّهوا معانيه السامية بفهمهم إياه على هواهم . إلى أين وصلت؟

— أقرأ الانجيل بإمعان نظر. أخذ يسوع يتغلغل الى حياتي.

— ما هي التطورات الطارئة؟

— آمنت بأن الله هو الذي خلق الانسان ، لأن الطبيعة عاجزة عن هذه المعجزة ، وأن العلم للعلم ضلال مبين. فعلم لا يرفع أذهاننا الى الله علم ناقص. علّمونا أن لغة المجهر هي لغة الحقيقة ، فإذا بالحقيقة فوق المجاهر.

— تابع مسيرتك ، فأنت على طريق السلامة.

— سنمرّ عليك بعد الظهر.

— أهلاً وسهلاً.

خرجا يتنزهان كالمرة السابقة مستمتعين بالمناظر. إلا أن توما شرع يطرق هذه المرة مواضيع متنوعة عن معجزات الخلق ، حتى إنه بات يرى يد الله غير المنظورة وراء كل شيء مخلوق. وكان كاسيانوس يرقص طرباً لسماعه توما يعطي المجد لله في مبروءاته . وكان يعرف من بخوميوس أن الإعجاب بروعة الكون المنظور خطوة رائعة على طريق الانعطاف الجارف نحو الله . فطفق ينافسه بلطف في هذا الباب ، مذكياً حماسه ، وباعثاً همته للإيغال في هذا السبيل.

قال توما :

— ماذا نصنع نحن العلماء؟ لم نخترع شيئاً من العدم. لم نكتشف إلا جزءاً يسيراً من مجهولات الكون. نقوم بعمليات تحويل في المواد الموجودة بعد أن نكتشف القوانين العلمية. لم نضع هذه القوانين المدهشة المبثوثة في الكون. نكتشفها بعد عناء

آلاف السنين من جهود السلف. نزهو باكتشافاتنا بدلاً من تمجيد الذي وضع للكون نواميسه. فسبّحْ يا أخي، سبّحْ.

— إني أحمد الله من كل قلبي على ما صنع، فأجاد الصنع، وخلب الألباب. إن كانت هذه المناظر تخلب ألبابنا، فكم هو خليق بأن تهيم به قلوبنا! كل شيء يدعونا الى تمجيده.

وعاد بُعيد الساعة الثالثة الى بخوميوس، فجدَّد الترحاب، وقال:

— كيف كانت نزهتكما؟

توما— سبّحنا بحمد الله.

كاسيانوس— أعطينا مجداً لله.

بخوميوس— من قرأ سفر الكون تلا سبحات من التعظيم لله.

بخوميوس— يا توما!

— نعم!

— إن استمررتَ وصلتَ الى زلزلة داخلية.

— ما هي؟

— يسوع يفعل في القادمين اليه فعل الزلزلة ليشق حجاب الهيكل الذي يستر عنهم قدس أقداسهم، وليدحرج الحجر عن باب قبرهم.

— لم أفهم كلامك.

— قبل موت المسيح على الصليب، كان كل شيء رموزاً وكنايات وحجباً كثيفة وقبراً يغطيه كحجر كبير. يسوع أسقط الحجب ودحرج الحجر، فعرفنا أنفسنا خاطئين قد غسلهم دم المسيح، وأقامهم معه من القبر.

— ما هي الزلزلة؟ لا أفهم مقاصدك؟

— يسوع يدخل الى نفس المهتدي، فيزلزل جسم الخطيئة، ويهدمه، ويفرقعه، فيتناثر شظايا واهية القوة.

— لم أصل الى هذا الحد.

— العقلانيون بطيئون. فكرهم يعرقل مسيرتهم. عقلهم جمَّد قلبهم. اعتدادهم بأرسطوقراطية العقل استعبد عفوية القلب وتوثُّبَ العاطفة.

— أزلت عن عقلي الحجاب. الانجيل كتاب للقلب لا لاجترار العقل. يسوع أخٌ للقلب أكثر منه أخاً للعقل. سأضع مكابحَ لعقلي وأفجّر طاقات قلبي. جلدني العقل طويلاً حتى تشققت عواطفي، وغار منها ما غار في غياهب المتاهات والمجهولات.

— العقل سيف ذو حدين، إن استعملته حسناً كان أداة خير كبير.

— كيف ننتزع قدرته على خدمة الشر؟

— إن تطور ضميرنا ونما في الالتصاق بشرائع الله.

— ماذا تنصحني؟

— لا بد لك من ثورة عارمة على نظامين خطرين هما: ١— نظامك العقلي في التفكير. ٢— نظام هذه البلاد في ذكر اسم الجلالة.

— أوضحْ.

— تربيتك العلمية تتطلب الاستيثاق المجهري. الله فوق هذه الترهات. تدنو اليه بعقلك لا كفاحص ومحلل ومشرّح نباتيّ أو حيوانيّ.

— كيف إذن؟

— إن وقفتَ أمام ملك خشعتَ. إن وقفتَ أمام أسد أو نمر ارتعبت. إن راودتك فكرة خطر أو خسارة أو دخول في المجهول اضطربتَ وقلقت وربما ارتعدت. إن سَرّكَ إنجازُ انسان أو منظر جميل أو سواهما أخذكَ الإعجابُ والدهش.

— هذا صحيح.

— فهل يليق بك أن تواجه الله بأدنى من هذه المشاعر؟

— كلا!

— إذن! ندنو من الله بعقولنا مغمورين بمشاعر الرهبة والخوف والإجلال، فضلاً عن الدهش والإعجاب، والتحرز من الاقتراب اليه بشفاه دنسة وقلب رجس متمرغ في الإثم.

— ومسألة بلادنا؟

— نحن أكثر شعوب العالم إيغالاً متطرفاً في ذكر اسم الله، ولكن دائماً — إلا نادراً — بدون سبب صحيح.

— لم أفهم قصدك.

— قد يكون حديث بعضنا منطوياً على ذكر اسم الله بنسبة ١ إلى ٤ على عشرة. فيتردد اسم الله في الحديث في كل جملة أو مقطع.

— هذا أمر حسن.

— لا! نحن لا نذكر اسم الله للحمد. نذكره في تجديف أو حلف ايمان أو سياق عبارات ورثناها عن السلف الصالح، دون أن نعيش معناها مثل: «إن شاء الله، الحمد لله، الشكر لله، ...»

— تذكرني الآن بهذا العيب الجماعي الفاحش الذي اعتبره الآن حجة قاطعة على تخلفنا الديني والأخلاقي. وحلف اليمين احتقار لاسم الله.

— والأنكى من ذلك أن حلفنا الإيمان كاذب. أحد أصدقائي القضاة أعلمني مرة أنه يستبعد — قدر المستطاع — استثبات الدعاوى بشهادة الشهود أو تحليف الخصم اليمين، لأن كذبهم يمرمر وجدانه.

— لاحظت أنك تخشع جداً لدى ذكر اسم الجلالة.

— طالع كتاب «يهوه أم يسوع» تعلم أهمية اسم الله في الكتاب المقدس. كتاب

الرهبان والنساك المفضل بعد الكتاب المقدس هو كتاب اسمه باليونانية والانكليزية والفرنسية واضرابها «فيلوكاليا» ، وفي الروسية «دوبروتولوبييه» . محوره هو ذكر اسم الله وتدريب المؤمن على استعماله بتقوى وإيمان. لدى كاسيانوس أجزاء منه بالأنكليزية والفرنسية . والأفضل هو تدريب الرهبان للناس على ذلك ، لأن الكتب لا تسد الحاجات كلها تماماً. التدريب الشخصي أهم من الكتب.

— بموجب كلامك كلنا بعيدون عن الله بعداً شاسعاً.

— إلا أنه — جلّ جلاله — قريب منا جداً . يقرع على أبوابنا لنتوب ، فيدخل اليها .

— وكيف نتوب وقد عشّش الإثم في كل كياننا؟

— طالع الموعظة على الجبل أي الفصول ٥و٦و٧ من متى وأشباهها في العهد الجديد ، والفصول ٦ و١٣ —١٨ من انجيل يوحنا ، فيرقّ قلبك ، ويقطع كلام الله الإثمَ فيك ، كأنه سيف ذو حدين ، فتلفظ الإثم لفظ النواة كما قال القديس الروسي ديمتري روستوف.

— سأقضي الأسبوع مهتماً بذلك.

— غصْ الى العمق وإلا طفوتَ على السطح. سل الله أن يلهمك الاهتداء الى الحق.

— صلِّ من أجلنا ، في الأسبوع المقبل.

انصرفا في صمت متأثرين جداً بوضع بخوميوس المدهوش كلما ذكر اسم الله ، كأن سلكاً كهربائياً قد صدمه عابراً. وقطع توما الصمت أخيراً ، فسأل :

— ذكر الله على لسان بخوميوس غير عادي. له مفعول كهربائي . ما الأمر؟

— ما مهنتك ؟

— أستاذ بيولوجيا.

— أما تتقن مهنتك في حدود معارفنا الحالية عن البيولوجيا؟

— نعم !

— ومهنة بخوميوس هي العيش مع الله وذكر اسمه . فمن البداهة أن يرتعش كلما خطر له ذكر الله . هل من المعقول أن يكون تأثير الكهرباء علينا أقوى من تأثير الله على النساك؟ الله مغناطيسهم الأقوى بما لا يقاس من كل مغناطيس . وهو نار أقوى من كل شرارة .

— أميل الى سماع شيء من الترنيم لاسم الله . اسمعني شيئاً منه .

وابتدأ كاسيانوس يستعرض الأناشيد ليختار منها ما هو أكثر ملاءمة للوضع . فوقع خياره على المزمور ١٠٣ (١٠٤) ، فأنشده على اللحن الثامن بتقوى وخشوع مردداً بعد كل آية : «اللهم ، المجد لك» .

ووصلا بسلام وافترقا . ثم انصرف توما الى مطالعة الفصول المطلوبة ، متوقّفاً عند كل آية ليستكنه معناها ، وهو يسأل الله أن يمنحه فهماً سديداً .

وكانت والدته تراقب بلباقة ، مسرورةً بالتطورات .

أما صديقه سليمان فكان يتابعه ليثنيه عن الطريق الجديد ، كأن روحاً شريراً قد كلَّفه مهمةً . وكان توما يطيل أناته وينصحه بمطالعة الانجيل ، فيرفض بتعنّت .

ولاحظ توما أن عوامل شخصية تلعب دوراً في تعنت سليمان ، فسأله :

— هل سبق لك أن طالعت الانجيل؟

— طالعته في شرخ الشباب .

— لماذا عزفت عنه؟

— لأنه ضد طبيعة الانسان .

— هل يعلّم الانجيل فساد الأخلاق؟

— لا ! إنما يتطلب أن نتعالى فوق الطبيعة .

— هل هذا عار في جبين الانسان؟

— لا ! إنما التطرف أخو التفريط .

— بعد ١٩٨٠ سنة من زيارة يسوع أرضنا وانتشار إنجيله في الأرض ، هل زالت الشرور من الأرض والحروب والمخزيات ؟

— لا !

— فإن كنا بعد يسوع وإنجيله ، ما زلنا منغمسين في الرذائل ، فكيف الحال لو لم يفتقدنا الله؟ أليس المسيحيون في كمية كبرى منهم هم أعداء الانجيل ومعاثر لغير المؤمنين؟

— كلامك صحيح إلا أني لا أود الرجوع الى الانجيل .

— لهوك وعبثك يضغطان على ضميرك . عد إليه تنطلق قفزاً الى الانجيل بلهفة وشوق وحنين .

— ليس لدي متسع من الوقت .

— هل تدري متى تفاجئك المنية ؟

— وهل تريد أن أقبر نفسي منذ اليوم؟

— أبعد قيامة المسيح من وزْنٍ للقبر؟

— الانجيل يعاكس حياتي الحاضرة من كل جهة . لا أريده الآن ، لا أريده . توشك أن تعيدني اليه . اليك عني . هممتُ بمفارقتك . فإلى اللقاء .

— اجلس .

— الى اللقاء .

خرج سليمان وفي القلب نبال من التوبيخ ، يكبت (سليمان) آثارها سريعاً ليخرس ضميره . ولكن صراعاً خفياً أخذ يدور في داخله .

أما توما فأسف لإصرار سليمان على الباطل ، وتمنى له الهداية .

الفصل الثامن

أفاق توما باكراً يوم السبت فأسرع الى مكتبه يطالع الانجيل. إنها المرة الأولى التي يعجز فيها عن ضبط نفسه. فقد أفلت زمام الأمر من يده. فبعد ساعتين من المطالعة والتأمل جاشت عواطفه، وسالت دموعه، وشعر بحاجة ماسة الى السجود، فركع، وأكبَّ بوجهه على الأرض يلتمس من الله الصفح عن زمان الجهل السابق الذي قضاه بعيداً عن الله وإنجيله. وأجهد نفسه في الصلاة حتى بلَّل الأرض بدموعه. ونهض ليغسل وجهه. فدخلت أمه الغرفة، فلفت نظرها تبلّل الأرض وأثر الركبتين، فتقدّمت واستوثقت من الأمر. فخرجتْ سريعاً الى غرفتها تركع بدورها وتصلي رافعة آيات الشكر ليسوع الذي هدى توما.

وقررت أن تترك له أمر مفاتحتها بالحديث. إلا أنه غادر البيت دون كلام. ولكنه عاد ظهراً يحدث والدته عن سروره باكتشاف يسوع وانجيله. فشجعته على المضي قدماً حتى النهاية. وأعلمها أنه سيذهب غداً الى بخوميوس، فعبّرت له عن اغتباطها وأبدت رغبتها في مرافقته يوماً. دعاها الى السفر غداً فاعتذرت بانشغالها.

وفي ضحى يوم الأحد انطلق كاسيانوس وتوما على جناح سرعة الشوق الى بخوميوس في قيادة حكيمة للسيارة، تتجنب أخطاء السائقين المعتادة. وكان يتوقع قدومهما، ويصلي من أجل سلامة وصولهما. فقد أضحى توما هاجسه الثاني بعد الله، متذكراً قول يسوع في التفتيش عن الخروف الضال. وما أن قرعا الباب حتى تمخّضت أحشاؤه تمخّضاً من الأعماق جميعاً، في حركة حنان عنيف. ففتح الباب، ورحّب بهما كعادته، وعيناه تقطران حناناً، وصدره يتلهف شوقاً وحنيناً. وتنفّس الصعداء، فشعرا بما في قلبه من لواعج الحب.

قال له توما: وجهك أنضر اليوم من ذي قبل.

— الحمد لله الذي يرتب لنا كل شيء بحسب مسرّة مشيئته.

— ما السبب؟

— الله هو ولي أمري. فسلْه ولا تسلْني.

— أنت تعرف نفسك.

— والله أعرف بها. أحوال المتبتلين تخضع لظروف معاشيّة خاصة. تتبدّل معها ملامح وجوههم.

فهم توما أنه أبى أن يكشف عن أصوام الرهبان، فقلب الصفحة، وقال:

— أكببتُ على الانجيل أستنشق فيه رائحة عرف يسوع.

— كيف رأيته؟

— صأصأتُ ولمّا أبصرْ.

— لماذا؟

— يسوع أكبر من الانجيل وأسمى من عقلي.

— الانجيل كلام الله؟

— ويسوع هو كلمة الله الحي، هو الكلمة الحي ابن الله الحي.

— يبقى الانجيل— ككلام الله— رسماً ليسوع كلمة الله.

— ويبقى الرسم رسماً والأصل أصلاً. الكلام مخلوق أما يسوع فخالق. الانجيل يقودنا الى يسوع ولكنه ليس يسوع.

— لدى أوغسطين وسواه قول مفاده أن يسوع يصير على المائدة خبزاً وخمراً وعلى منبر الوعظ إنجيلاً.

— لا أنكر قيمة الانجيل.

— الآباء قالوا إننا نتناول يسوع عبر تلاوتنا صلاة يسوع. وكذلك نتناوله إنجيلاً.

— يبقى شخص يسوع هو الأساس، ويبقى ما عداه واسطة. نعرف يسوع بالإنجيل. ولكن الحقيقة شيء آخر غير الكلام.

— كلام الله كلام مقدس يقدس النفس ويطهرها .

— يسوع هو الذي يطهر بكلامه .

— أهكذا أنت مسحور بيسوع ؟

— أخذ يزلزل كياني ، ويعيد إليّ ذاتي الضائعة والضالّة .

— الى أين وصلت ؟

— أجريت حساباً لحياتي ، فوجدت أن عمري الآن هو ٣٥ سنة وثلاثة أشهر وسبعة أيام . إضربْ عدد أيامها وساعاتها بستين دقيقة وإضربْ الحاصل بستين ثانية ، تجدْ أني عشت أكثر من مليار ومائة مليون ثانية بدون يسوع . وهكذا أضعت هذا القدر من لحظات العذوبة في ظلام دامس منقوعاً في جحيم الخطايا والفراغ الروحي .

— كيف يزلزلك يسوع ؟

— بقدر ما هو طاهر بقدر ما أنا بالعكس دنس .

— أين الزلزلة في هذا ؟

— هل من المعقول أن أعرف أن الله صار إنساناً ، ومات على الصليب بين مجرمين كأنه مجرم من أجل آثامي دون أن يرتعش كياني متزلزلاً ؟ يسوع نور وأنا ظلام . يسوع طهر وأنا نجاسة . يسوع بياض ناصع وأنا سواد فاحم . أعرف هذا الآن إلا أن نور يسوع لم يلمع فيَّ بعد ليهرب الحراس الضابطون حجر قبري أمام ملاكه المبعوث لدحرجة حجار الخطايا عن بابه ؟

— يا مهجة فؤادي ! وصلتَ الى مرحلة حاسمة . هذا وظيفة المعمودية . عليك أن تستعدّ لها .

— أنا جاهز الآن .

— أهلاً بك . إلا إني أؤثر في شأنك التعمق لكي يأتي اهتداؤك كاملاً .

— ماذا تريد مني؟

— اليك كتاب «الايمان الأرثوذكسي» للقديس يوحنا الدمشقي. تصفّحه الى جانب الانجيل وعد إلي في الأسبوع القادم لأُجري لك امتحاناً.

— مشاغلي في التدريس خلال الأسابيع القليلة تأخذ قسطاً واسعاً من الوقت. فنحن في فصل التهيئة للامتحانات.

— نوزع المسألة على أسابيع. شرحي هو الأساس. مطالعتك تساعد على سرعة استيعابك. متى فرغت من الدمشقي دفعت اليك كتاب «الحياة في المسيح» لنيقولا كابازيلاس. فهذا كتاب أساسي يتمم كتاب الدمشقي ويضفي عليه النفثات الروحية. الأول تعليمي، أما هذا فتثقيف روحي رفيع.

— هل أحتاج الى وقت طويل؟ قلبي يتلهف الى المعمودية.

— لا أستطيع أن أمنعها عنك. ولكن — كما قلت لك — أوثر أن تنضج نضوجاً تاماً لها، فذلك أبقى لنعمتها وأنجح.

— طالعت الانجيل الرباعي الألسنة النارية النورانية.

— هذا امر جيد. الا أن الكنيسة هي القيّمة على التعليم. مئات الملايين طالعوا الانجيل. ولكل رأيه. أما الكنيسة حاملة الروح القدس فهي وحدها صاحبة السلطان لتدلّك على المعنى القويم. وكتاب الدمشقي تكريس لتعليمها. طالعْه اولا، ثم اشرحُه لك ثانيا فتهون المشقة.

— قلبي مضطرم.

— زاده الله اضطراما. ما جاء يسوع الا ليلقي نارا لا يريدها ان تخمد بل ان يَطَّرد اضطرامها بقوة متزايدة الى ما لا نهاية له.

— لا تريد أن تطفئ عطشي.

— لا اريد الا استعاره. الم تقرأ: «طوبى للجياع والعطاش الى البر»؟ تصَوَّر

جوعا واذبلْ ظمأً وتلوَّ شوقا. سوف اعلمك ماهية المعموديّة، فتدرك ان التسرع في منح النعمة مذموم.

— الرسل عمدوا الآلاف دفعة واحدة. وتعاطوا التعميد بسرعة.

— لقد خوَّلهم يسوع ما لم يخولني. هم وكلاء يسوع الملهمون في كل شيء، اما أنا فانسان مثلك تحت نير الخطيئة والعبودية. وكالتهم عن يسوع اشمل من وكالة خلفائهم وسائر المؤمنين. نحن نهتدي بهم دون أن نبلغ مرتبتهم.

— ما مرتبتك؟

— أنا راهب دون جميع المراتب. مذهبنا نحن معشر الرهبان هو التواضع والانتظام وراء جميع الناس، لأننا نعتبر انفسنا أكبر الخاطئين.

— أَبعدَ زهدكم في كل شيء تعتبرون انفسكم كذلك؟

— هنا اكتشفتَ ملء هذه الحقيقة. العائشون في الدنيا يبتعدون غالباً عن اكتشاف انفسهم، فتنفخهم العجرفة والكبرياء. لا يريدون ان يروا انفسهم لأنهم يتوهمون انهم شيء عظيم جدا، فيخشى لاَ شعورُهم ان يعرفوا حقيقتهم التافهة، فيخسروا اعتدادهم بانفسهم.

— العجرفة؟ هذا داء واسع الانتشار. الناس ينظرون الى بعضهم بعضا شذراً.

— خطيئة الشيطان الأولى هي الكبرياء. آدم وحواء وقعا اولا في خطيئة الكبرياء. آباؤنا شنّوا الحملات الشعواء عليها. العجب بالذات غول متعدد الرؤوس فأين أنت بعد من تنقية نفسك؟

— أقلعت عن الإكثار من التبغ والقهوة والخمر بنسبة كبيرة، وانصرفت عن الحشيش والميسر واللهو. إلا أني أرى ذلك قليلاً جداً بالنسبة للمطلوب.

— هذا كله قشور خارجية. المعمودية والانجيل سيدخلانك معركة تطهير الداخل، التي بدونها لا يمكن ابدا ان يكون الخارج طاهرا تماماً، مهما امتنعنا عن

الخطايا التي نستعمل فيها الجسد كالفم للطعام والشراب، والأنف للاستنشاق، واليدين للقمار، والجلد للتنعم، وهكذا دواليك. قداسة الروح تمتد الى قداسة الجسد. اما امتناع الجسد عن الموبقات، فامكانية موضوعة تحت تصرف الروح. ان امتنعتَ جسديا بفعل الروح كان امتناعك روحيا، والا فلا. كل الامور الجسدية تبقى بلا قيمة روحية الا اذا عطّرها الروح.

— لم افهم كلامك.

— قد يصوم المرء اياما منقطعا كليا عن الطعام. يفعل هذا لاسباب عديدة صحية وتقوية. فان كانت التقوى هي الهدف قدّس الصوم جسده. وان كان الهدف سوى ذلك لم تفدْ روحه من صومه الا اذا جعل التقوى هدفا منضما. قد يمتنع عن النجاسات، لأن مجتمعا محافظاً يرفضها، فتلقّف ذلك منه. هذا لا يجعله طاهراً الا اذا تعفَّف لمجد الله، لان بولس علمنا في رسالته الى غلاطية ان العفاف هو ثمر الروح القدس.

— هموم يسوع منصبة في الدرجة الأولى على الداخل اذن؟

— اصبر صبرا جميلا لترسخ في يسوع وانجيله. انصرف الآن وتأمل فيما تلقنتَه. يكفيك هذا الدرس لايام فايام.

— سأركع أمامك لتباركني وتصلي من أجلي.

— يسوع الذي مات من أجلك ليرفعْ يمينه ويباركك ويلهمك حسن الهداية.

الفصل التاسع

وخرجا ينطلقان الى الغابات. وتناولا الغداء في شاغور حمانا. وبعد الظهر انطلقا الى شتوره لاحتساء القهوة.

وخلافا للمعتاد في هذه البلاد، فقد ابتعدا عن الاحاديث السائرة وجعلا يسوع وانجيله وكنيسته مدار اهتماماتهما.

وحرص توما على أن يطَّلع سريعا على كتاب الدمشقي وهو يتلو فصوله على كاسيانوس. فاستوقفه هذا وطلب منه ان يتلو صلاة قبل القراءة، فاستلهم كاسيانوس الروح القدس، لينير ذهنيهما لفهم الكتاب، لخلاص نفسيهما ومجد الثالوث القدوس.

تنبه الى طابع الكتاب سريعاً، فطلب ان تكون التلاوة بطيئة تتخللها فسحات للاستراحة وتأمل النص. وقع الخيار على الفصول الالهية والثالوثية، فطالعاها بإمعان، الا أن استيعابها بدا مستحيلا لهما. فترك الامرُ لبخوميوس.

اقترح توما العودة اليه ما دام نهار. فرفض كاسيانوس لئلا يزعج الالحاح بخوميوسَ. فاعترض توما بأن بخوميوس اشد حماسا للموضوع منهما. ولم ينتهيا الى قرار حاسم قبل ان تميل الشمس الى الغروب، فتأجل الموضوع الى الأحد القادم على مضض من توما.

وعادا الى بيروت من طريق صوفر، فبحمدون حيث توقفا دقائق لالقاء نظرات الى مناطق الصنوبر حيث يقبع دير الحرف كواسطة عقد في قلبها.

ووصلا بيروت بعيد الغروب، فوجد توما امه في انتظار قلق، لتعرف ماجريات النهار. فاستقبلته ببشاشة واجلسته الى جانبها تطلب رواية ما جرى. وبعد الملخص الوافي، استدعت ابنتها نعماء لاعلامها بان توما يمر في ازمة مصيرية. فسألت نعماء.

— ما نوعها؟

— انها ازمة التمخض في يسوع، لكي ترتسم فيه صورة يسوع على ما علَّم بولس الرسول.

— وهل طلّقَ الالحادَ؟

— نعم!

— لا أكاد اصدق.

— سليه.

— ماذا تقول؟

— ان يسوع يفتقدني.

— ومتى تعتمد؟

— الناسك بخوميوس استمهلني، لكي انضج أكثر فأكثر.

— وماذا فعلت بكتب الالحاد؟

— أحرقتها.

— من كل قلبك؟

— بكل كياني.

— يا ليتكِ، يا أمّاه، عمّدتِه وهو طفل في غياب أبي كما فعلتِ بي!

— ما شئت أن اغضب والدك، وادخل معه في صراع مرير مجهول النتائج في ظروف تتطلب حكمة، قد لا يصيب المرء فيها الهدف الصحيح.

— هل علم أبي بهذا التطور؟

— لا!

— اعلميه.

— دعيه يكتشفه بنفسه.

— ماذا يكون موقفه؟

توما — انا في الخامسة والثلاثين من العمر. انا سيد مصيري امام الله.

نعماء — لقد طفح قلبي سروراً. واتمنى لك اطّراد النجاح في هذا الطريق.

انسطاسيا — اخوكِ مواظب على تلاوة العهد الجديد. هل تودين مواكبته؟

— طالعتُ العهد الجديد منذ ٣ سنوات.

توما ــ هل هذا يعني عدم حاجتكِ اليه؟

ــ طالعته.

ــ سطحيا.

ــ لا! بتمعن.

ــ كلا!

ــ من اين استنتجت ذلك؟

ــ لو طالعته حق المطالعة لكان قوتك اليومي ورفيق انفاسك.

ــ أتطلب مني ان احفظه غيبا؟

ــ لا! بل ان يمتزج بروحك وخاطرك ولسانك رفيقا حبيبا، وطعما طيبا، وعرفا زكيا ينعش الرئتين والصدر.

ــ ما بالك لا تنظم لنا قصيدة فيه؟

ــ هو قصيدة القصائد وانشودة الاناشيد. منذ لحظات ذكرت اعتمادك وأنت صغيرة. ماذا فعلت بالنعمة التي حظيت بها؟

ــ لم يدربني أحد على ادراك اهميتها.

ــ لهذا تتكلمين بتفاهة. أنت عروس المسيح بفضل المعمودية. هل تعلمين ذلك؟

ــ لا! لم اتدرب.

ــ هذا عيب مجتمعنا المسيحي المزيّف الذي يعمِّد الأطفال ويتركهم بلا تثقيف ديني وتدريب روحي.

ــ هل أنت ناقم وثائر؟

ــ أنا مبتدئ بل شبه مبتدئ في مدرسة يسوع القائمة على الأصالة لا على التزييف.

— ماذا تريد ان تقول؟

— ليس في المسيح لا ونعم. المسيح نعم. لا يمكن ان يكون رجال يسوع ذوي وجهين ولسانين وقلبين وصورتين وزيّين. ثوب المسيح لم يكن قطعتين بل كان قطعة واحدة، مخيطا من اعلاه الى أدناه. اما نقول: «فلان شقفة واحدة»؟ المسيح واحد لا اثنان.

— لا أفهم ما تقول. لماذا تغوص في كلامك وتشرد؟

— حين اعتمدتِ، انما اعتمدتِ باسم الثالوث القدوس الاب والابن والروح القدس.

— ماذا يعني هذا؟

— انه يعني انك مكتوبة على اسمه، انه انعقد عقد خطبتك على اسمه. ومع هذا فانت لا تلتمسينه في الانجيل.

— كيف؟

— الانجيل صوت الله الموجه اليك وكلامه قدوس. ان تناولتِه بشكر وحمد غذّاكِ الهياً.

— توما! انا فتاة في العشرين من العمر. لم أصل بعد الى هذا المستوى. دعني أَعيشْ مثل بنات جيلي بدون ان افلسف الامور فوق طاقتي.

— ما أنا الفيلسوف. قلت لك اني شبه مبتدئ. المفروض فيك بعد أكثر من ١٤ سنة من اعتمادك ان تكوني انت فيلسوفة المسيح واستاذتي.

— ارى انك في طريقك الى الجنون بالمسيح. انا لا أود ان اكون مجنونة.

— يا ليته ينعم علينا بذلك.

— لكَ لا لي.

— يبدو ان اهمالكِ لنعمة المعمودية طيلة عمرك قد جعلك الى حد ما في وضع

البيت الذي خرج منه الشيطان مطروداً، فاهمله صاحبه، فعاد اليه الشيطان مع سبعة آخرين من انداده شرٌ منه.

— ويحك! ماذا تقول؟ أبعدَ اللهُ عني هذا الخطر الماحق! لا يسكنني اي شيطان. أأنا ممسوسة؟

— لا سمح الله يا اختاه! اعطيتك صورة من الانجيل عن الخطر المحدق بالذين يطرد يسوع منهم الشيطان بفضل المعمودية، فيهملون انفسهم، فيهاجمهم الشيطان بضراوة.

— أين الممسوسون؟ بعد المسيح لم نعد نسمع بالممسوسين.

— المسيح خلع الشيطان من عرشه وهزّمه شر هزيمة. ولكن، يا اخيّتي، ما زال الشيطان يهاجمنا من الخارج. طرده يسوع من داخلك. ولكن بقي للشيطان سلطان على مهاجمتك من الخارج.

— أصبت الان. لا تزعجني بصور قد لاشاها المسيح.

— الا أن الشيطان، يا عزيزتي، ما زال قويا عندنا، لأن أمثالك من الذين تعمدوا صغاراً هم مجتمعنا المسيحي في هذه البلاد. وقد وضعوا الانجيل على الرف، ولا يطالعون الكتب الدينية. ويعزفون عنها كأنها البعير المعبَّد. ويفضلون ان يشتروا مجلة تافهة بعشر ليرات على شراء العهد الجديد بليرتين. ويطالعون كتب التفاهة وما هو أدنى منها عازفين عن الانجيل.

— هم مقصّرون، ولكنهم ليسوا بممسوسين.

— ماذا تظنين؟ من هو حزب الشيطان، الباردون أم الفاترون؟

— لا أدري.

— اجهدِي ذهنك.

— لا أدري.

— قد ينقلب الباردون اي أهل الكبائر الى اعاظم القديسين.

أنسطاسيا — لماذا؟

توما — قد يلتقي النقيضان. أهل الكبائر جمعوا قواهم كلها. وشحذوها أضعافاً، وألقوها في معركة فاصلة بلا تردد ولا تحفظ. الله وحده يعلم متى يستيقظ فيهم الضمير. فان استيقظ انقلبوا رأساً على عقب، مثل بولس الرسول.

أنسطاسيا — والفاترون؟

— جمّد الشيطان قدراتهم عن النضال وشلّها. فلا هم في الخير رجال ولا في الشر رجال. هم أشباه رجال لا أنصاف رجال. هذا هو مجتمعنا المسيحي المزيف.

نعماء — حكمك قاسٍ. بدأت تصير «شقفة واحدة». لا أستطيع أن اجاريك. وداعاً!

أنسطاسيا — اعتدلْ في الحديث مع اختك لعلك تربحها الى صفك.

— لا تخشي العاقبة. كلام الله لا يعود فارغاً. قد يفعل فعله ولو بعد ثمانين سنة. اما قرأت في الانجيل عن الابن الذي رفض ان يذهب الى العمل في كرم أبيه ثم ذهب؟

— استطيع، اذن، ان اتوقع تبدل نعماء؟

— هذا عمل الله لا عملي. كلمة الله تتفاعل مع نفس الانسان ايجاباً وسلباً بطرق لا يحصيها الا الله. لا ندري متى تنقلب السلبيات الى ايجابيات والأيجابيات الى فتور.

— ساتركك ترتاح بينما انصرف الى العناية بالبيت.

وبعد قليل وافى زوجها يونان، فاعلمته بتطورات توما. فصمت بدهشة معتدلة وقال:

— هذا التطور المفاجئ غريب. هو حر وراشد. المهم ان يعمل بقناعاته بعيدا عن الاستهواءات والاغراءات. أين هو؟

— في غرفته؟

— ماذا يعمل؟

— ربما كان يرتاح بعد عناء. دعه لوحده. والأفضل ان تقف على الموضوع بالمصادفة وعفوا.

الا أنه خرج وانتحى ناحية في قاعة الجلوس يقلّب في رأسه الأمر منقبا عن الأسباب التي دعت توما الى مثل هذا الانقلاب المتأخر، فلم يصل الى نتيجة. فترك الأمر الى ما يمكن ان تنجلي عنه الامور في الأيام القادمة.

وقع سليمان فريسة لفكر مهووس وروح شرير يدعوانه الى إفساد الطريق على توما.

والتقيا عرضا بعد اربعة ايام غاص خلالها توما على لآلئ كتاب الدمشقي. فبادره بالسلام والقول:

— الى أين وصلت مع يسوعك؟

— يسوعي هو يسوعك.

— لا، أنت تحتكره، اما أنا فلا أدعي احتكاره.

— لو شئتَ احتكاره لنافستني خلال لحظات.

— لا أود.

— ما أنت الذي لا يود بل آخر.

— من هو؟

— الروح الذي يباعد بينك وبين يسوع.

— أي روح؟

— روح اللهو والعبث والعيش للدنيا دون الآخرة.

— أين الآخرة؟

— بعد القبر.

— ما لك وللقبر؟ «الدنيا بلا شراب خراب».

— وهل يثمر الشرابُ سوى البطرِ والبطرُ الدمارَ الفردي والجماعي؟

— وماذا تجني نفعا من بناء وجودك في لحد؟

— أدفنُ الجسمانيات من أجل قيامة الروحانيات.

— هل خلق الله الجسد لنسجنه قبل الموت في لحد؟

— وهل خلق الله الجسد للانحلالات الاخلاقية؟

— هذه هي طبيعتنا. لم نسمع ولم نشاهد انسانا من طينة اخرى غير طينتنا. فالفساد عام اذن. كلنا متساوون فيه. وهذا حالنا وحال اسلافنا من قبلنا. فلماذا علينا أن نقاوم ما هو طبيعي؟ فلنأكل ونشرب ونعبث لأننا غدا سنموت.

— الخلاف بيننا على نوعية الميتة.

— القبر قبر لكل الناس. يدخلون المجهول بالسواء. بينما نحن هنا في دنيا المعلوم. هلم معي لنحتسي الخمرة. اليومَ خمر وغداً أمر.

— وستقول غدا مثل هذا القول، وتكرره في كل يوم حتى يأتي غدٌ تدخل فيه القبر بلا رجاء.

— رافقني الى الحانة.

— معاذ الله!

— سأسقيك خمرة هي لذة للشاربين.

— لا أدخل جهنم.

— الجنة هنا. فلا تخدع نفسك.

— لا جنة لجسد يتمرغ في الموبقات قاتلا الروح.

— أَعَالِمٌ بيولوجيا وتتحدث عن الروح؟

— أأنت مسيحي أم وثني؟ ما هذا الزيف الخطر؟

— أأنا مزيف؟

— المسيحية تقوم على ايمان بقيامة المسيح وقيامة الاموات وحياة اخرى روحية. فكيف لا تكون مسيحيا مزيفا ان كنت تنكر وجود الروح؟

— لست أنا المزيّف، بل أنت يا من تزيّف الوجود والطبيعة راكضا وراء الأوهام.

— أنت انسان بروحك لا بجسمك. جسمك مشابه لجسم الحيوان. هل الحيوان شخص؟

— أعرفك منذ سنين تقول بالمادية. متى صرت روحانيا؟

— لست حرا في خياري. الأدلة طمست عقلي طمساً. لم استطع ان أعثر تحت المجهر على الشخص، بينما أنا واثق بأنك شخص واني شخص وبأن شخص كل واحد منا يميزه تمييزا قاطعا من الحيوان.

— أتنحو منحا فلسفيا اليوم؟

— سمِّه ما شئت. هذه بديهة لدي.

— لم اقتنع بكلامك. الخمرة لذة للشاربين.

— يومَ تعجز عن شربها لمرض — لا سمح الله — او سواه سوف تدرك انك اضعتَ العمر باطلا. رغباتكَ ديكتاتور طاغية يتحكم فيك.

— وتفكيرك اوهام تتقاذفك كموج البحر أو كريشة في مهب الرياح. عد الى رشدك ورافقني.

— استعدتُ رشدي — ولله الحمد — ولست بحاجة الى التطويح به. هداك الله. وداعاً.

الفصل ١١

وأخيراً اهتدى يونان الى طريقة للاتصال بتوما وطرح الأمر معه. فدخل عليه وهو يطالع الدمشقي والى جانبه العهد الجديد مفتوحاً. تطلع فوقع نظره على الفصل الأول من الانجيل بحسب يوحنا. قال:

— ماذا تطالع؟

— «الايمان الارثوذكسي» للقديس يوحنا الدمشقي.

— هل انتهيت من مطالعة العهد الجديد؟

— تقريبا.

— ارني الدمشقي.

تناوله وقلب صفحاته وفهرسه، فقال مدهوشاً:

— هذا كتاب لاهوت من عيار كبير!

— نعم!

— هل قطعت مرحلة حتى وصلت الى البدء بمطالعته؟

— طالعت القسم الأكبر من العهد الجديد.

— هل أنت سعيد بذلك؟

— جدا

— اعملْ بوحي ضميرك.

— وارشاد الله وانعامه

— التقوى تشغف قلبك على ما أرى

— سمع الله لك.

— هل هي نزوة عارضة؟

— لا ! بل جهاد مرير واقتناع بالانجيل.

— أنت حر. وداعاً.

الفصل الثاني عشر

اتصل توما بكاسيانوس هاتفيا واتفقا على الانطلاق يوم الأحد في الساعة المعتادة، فانطلقا معا. فأخذ توما يحدث رفيقه عن الدمشقي وبراعته في التعبير عن الايمان الارثوذكسي. ووصلا ودخلا على بخوميوس فرحين، فوجداه يطرب للقائهما مسرورين. وطرق بخوميوس صلب الموضوع رأسا، فقال لتوما:

— ماذا طالعت؟

— طالعت ما هو متعلق بالله وسر الثالوث القدوس.

— لخص ما قرأت.

أخذ يلخص بينما يقاطعه بخوميوس بالأسئلة، فوجده قد استوعب الامر بنسبة ما. ثم تناول بخوميوس الحديث، فأوضح له ما أغلق عليه فهمه. قال:

— اعلم أننا نؤمن بأن الله أحد في ثلاثة أقانيم.

— ما معنى لفظة «اقنوم»؟

— في التعبير المعاصر تعني «الشخص». وآباء الكنيسة استعملوا اللفظتين كمترادفين. آباء الكنيسة هم الذين نسفوا مادية الفكر اليوناني ومُثُليته وقدريته، فجاؤوا بمفهوم الشخص الحر المستقل العاقل القائم بذاته.

— كيف الله احد في ثلاثة؟

— افتح عينيك بل قلبك وافهم ان جوهر الله أي الوهة الله واحدة.

— المسيحية موحدة اذن لا مشركة؟

— أكيداً. لو قلنا بثلاثة جواهر لأضحينا مشركين. ولكن ما دمنا نقول ان جوهر الله واحد فنحن موحّدون. الوحدة هي وحدة الجوهر. والتعدد هو تعدد الجواهر. الألوهة واحدة لأن الجوهر واحد.

— ما ميزة توحيدنا؟

— لا يعني توحيدنا اننا نُغلِقُ على الله في وحدة انكماشية. ليضحي جوهرا نظريا خالصا. قولنا بثلاثة اشخاص يعني ان الهنا اله شخصي حي منفتح على الغير في محبة مطلقة، الآب يحب الابن والروح القدس. وكذلك الابن والروح. هم واحد بلا انفصال. الألوهة كلها في الآب، وكلها في الابن، وكلها في الروح القدس، بدون أن تنقسم بينهم وبدون أن يكون احد منهم منفصلا عن الاثنين الآخرين.

— رائع.

— الآب في الابن والروح والابن في الآب والروح. والروح في الآب والابن.

— رائع

— الواحد: الثلاثة، والثلاثة: الواحد. ١ = ٣ يا للسر العظيم!

— لتسقط الرياضيات امام سر الله، امام المحبة، امام وحدة الثلاثة الاشخاص. ليسجد العقل. لو عاش البشر هذا السر لارتفعوا عن الأرض. ألسنا هنا ٣ اشخاص؟ لماذا لسنا واحدا؟ أليس لأن الخطيئة والسلبيات تفرّق فيما بيننا؟ الان ادركت ان سر الثالوث هو كنه المسيحية. آمنت به.

— هل اخذت فكرة عن قرب الله وبعده عنا؟

— لا!

— الله غير مدرك، وغير ملموس، وغير منظور وغير مقترب منه، ولا متناهٍ. ولكن الهنا ٣ اشخاص. الشخص يشارك، يدخل في شركة. فان كنا لا نستطيع الاقتراب من جوهره، فان نوره الجوهري قابل لأن يسطع فينا ويسكن فينا.

— اذن، الله غير مقترب منه في جوهره ومقترب منه في نوره.

— نستعمل عادة لفظة نعمة. نستطيع ان نتحد به عن طريق نعمته.

— هل اكون في المعموديّة مساهماً في الله؟

— نعم! اقرأ العدد ٤ من الفصل الأول من رسالة بطرس الثانية. اقرأ للاسبوع القادم سر التجسد الالهي من الدمشقي. اكتفِ الان بهذا القسط لتأملاتك في الأيام القادمة. فان وسع قلبُكَ سر الثالوث ارتقيتَ الى السموات ولو بقيتَ على الأرض.

— صلِّ من أجلنا.

— لا توصِ حريصا. فان اهتداءك اضحى مهمة حياتي الكبرى.

خرجا فعرض توما على كاسيانوس ان يسمح له بقضاء نصف ساعة في الكنيسة قبل الخروج في النزهة المعتادة. فجاراه بترحاب كبير. ودخلا الكنيسة وانزوى كل منهما في زاوية.

وفتح توما يديه، ورفع رأسه الى السماء، وأغمض عينيه، مسترسلا في صلاة طويلة تواكبها دموع. ثم ركع على ركبتيه، يجاهد في الصلاة والتنهد على الماضي الذي ذهب عبثا.

وبعد الفراغ انطلقا في اتجاه ضهور الشوير حيث اختارا ان يتناولا الطعام.

وانسابت السيارة بين التلال والاشجار والاودية حتى ضهور الشوير. وحلا في مطعم يشرف على الشوير وجبل صنين. فرشقاهما بالنظر نزولا وصعودا مسبحين الله الذي ألبس الطبيعة هذا الجمال الفتان، ليرفعُ ذهن الانسان من المرئيات الى غير المرئيات. وساد الصمت كثيرا، ليتنسّما رائحة جمال الله في جمال الطبيعة ويتذوقا كمالاته في تقاسيمها الجميلة. وكانا يرددان كل فترة:

— سبحانك ربنا! ارِنا مجدك. انعمنا بنور طلعتك. فرِّحنا بجلال حضرتك.

وعادا مساء عبر بكفيا بين غابات كثيفة من الصنوبر تطل على البحر، وعبر انشاد الروح لرب الوجود.

استقبلت انسطاسيا ونعماء توما بترحاب . فجلس معهما قليلا . واستأذن للراحة . ولكن في الحقيقة للتأمل الخاشع في تسبيح الثالوث .

وفي صباح اليوم التالي استيقظ باكرا ليجالسهما بدلا من قِصَرِ المجالسة بالأمس . فقد أحسّ بأنه أخلّ بقانون المحبة الذي هو اهمّ من قانون الصلاة .

وقدمت انسطاسيا له القهوة . وأتت نعماء تشاطرهما الحديث . أما يونان فبقي في غرفته غارقاً بين كتبه . بدأ توما بالاعتذار عن انسحاب الأمس سألته أنسطاسيا :

— كيف قضيت يومك امسِ؟

— في غبطة .

نعماء— تطوراتك سريعة . لا أفهم مقوماتها ومسبباتها .

— أنت اقدر مني على ذلك .

— أنا؟ معاذ الله !

— لا تتلفظي بكلام الجهالة والحماقة .

— أتكلم جديا ،

— وأنا اجاوبك جديا . فأنتِ في شرخِ الصبا . حيويتك اقوى من حيويتي . مرونتك أوسع بمراحل من مرونتي . انما أنت بحاجة الى طرح الفكر العالمي وانشغال الذهن بالازياء ، والمجلات ، ونوافل الطعام ، وسائر صرعات هذا الزمان الذي ينكّر وجوهنا الملائكية بوجوه الشيطان .

— اي زي تريد ان ارتدي؟

— زي جبل ثابور المضيء . فيشرق وجهك كالشمس بفرح أبدي .

— وكل مسرات الأرض احزان في نظرك ما عدا نور ثابور؟

— نعم ! ما للأرض يذهب الى الأرض . وما للسماء يذهب الى الخلود .

انسطاسيا—علينا ، اذن ، ان نمسك بميزان نضع في كفة منه كل ما هو زائل وفي كفة اخرى كل ما هو أبدي .

— اصنعي هذا تنطلقي في مسالك الحياة.

نعماء— ما زلت بعيدة عن تصوراتك. سانصرف الى شأني.

وخرج يونان من غرفته وجالسهما. واخذ يقص عليهما انباء مطالعاته العلميّة والأدبية وآخر النكات التي طالعها في المجلات. فبادره توما:

— الى أين يصل بك العلم والأدب؟

— الى رحابة الثراء العقلي الواسع.

— إلى أي سنّ يستطيع المرء ان يحتفظ بحيويته الثقافية دون هرم أو خرف؟

— المسألة تختلف باختلاف الناس. البعض يحتفظ بقواه العقلية حتى التسعين.

— والأكثرية؟

— حتى الثمانين فما دون.

— أطال الله بعمرك بدون خرف. فما دام الخرف قنبلة موقوتة، فالعلم والثقافة ثروة عابرة حتى قبل الموت لا بعده فقط. ونعيمها نعيم موقت. وربما كان شقاء المثقف في حالة الخرف اقسى من شقاء الأمي. وأهله هم حملة صليب خرفه اذ يصبح عبئاً ثقيلا عليهم.

— لم تتبادر الى ذهني امثال هذه الأفكار.

نعماء— وقاك الله من الخرف.

— انفتحت امامي آفاق جديدة وعالم مجهول.

توما— أَعِدِ النظرَ في كل قيمة العقل والفكر والعلم والوجود نفسه تهتدِ الى المعنى الحقيقي للوجود.

— هذا موضوع يحتاج الى اشهرٍ من الموازنات وتقليب النظر وامعان الفكر. ربما اضطررت الى اعادة النظر في السّتين سنة التي عشتها حتى اليوم. دعني افكر ببرودة اعصاب.

— البرودة تبقى برودة. والمسألة تتطلب حرارة.

— أأنا في عمرك؟ العمر استنفد حرارتي.

— الناسك بخوميوس من ابناء جيلك. ومع هذا يتمتع بحرارة قوية وحيوية رائعة.

— له قالبه.

— انما قالبه التقوى والصلاة. هما أصل حرارته وحيويته.

— دعني أتَرَوَّ.

— تروَّ ما شئت.

وودع بعضهم بعضا وانصرفوا الى اعمالهم.

الفصل الثالث عشر

سليمان قَلِقٌ يثور تارة على نفسه وتارة على توما. يثور على توما لأنه انقطع عنه تاركا في قرارة نفسه وخزات ضمير يستيقظ حينا، ويغطّ في سبات عميق حينا اخرى. ولكن عاداته السيئة أضحت لديه طبيعة ثانية لا تزحزحها لسعات الضمير الخفيفة. وخطر له ان يستعيد توما الى خطه، فيرتاح من ضميره الذي اخذ يعكّر له صفو الملذات ويعرقل له انغماسه فيها.

فذهب الى توما في وقت الفراغ، وقابله بدون القاء التحية والسلام، وقال:

— أهكذا تركتني بدون تمتع بحلاوة ودِّكَ فهجرتني؟

— لم أهجرك. فأنا مستعد للموت في سبيلك. ولكن أبيتَ أن تحترمَ أوضاعي الجديدة.

— أنتَ الذي فسخ العهد.

— اتسمي العهدَ على الباطل عهدا؟ الحقيقة وحدها تُلزِمني. الباطل لا يلزم أحداً. العقود القائمة على مخالفة القانون الصارخة باطلة. عقد لصّين على سرقة باطل. يمين على أَمر رذيل باطلة. المسيح حرص على أن يكون كل شيئ طاهراً: الغاية طاهرة، والوسيلة طاهرة في خدمة إله الطهارة. لا مكيافيلية في المسيحية. ما من غاية مهما كانت نبيلة تبرر واسطة بغيضة. النور نور كلّه لا بعضه.

— هل تعتبر نفسك في حلٍّ من صداقتي؟

— لا! بل انا في حلٍّ من رفقة الشراب والعبث والميسر.

— أضحيتَ تقلقني.

— قيل في ايليا النبي إِنه مقلق اسرائيل. ما أنا الذي يُقلقك بل يسوع المدفون فيك هو المقلق الأكبر.

— أنتَ تنصِّب الآن نفسك رسولا ونذيراً. هذه نزوة عابرة. ستعود الى عريننا، لأنك ستكتشف بعد حين انك فقدتَ لذة الحياة، وجلبتَ على نفسك نقمة لا نعمة.

— وان صمدتُ حتى النهاية؟

— كان يسوع اقوى من حاجاتنا الجسمانية وملذاتها.

— أتراهن؟

— أراهن.

— ان صمدتُ انقلبتَ أنت الى خطي. والا عدتُ انا الى خطك.

— اوافق. ولكن ما المدة المضروبة للرهان؟

— ما المدة؟ انا صامد ما بقي الزمن انتظر افتقاد الله لك.

خرج سليمان متمزقاً داخليا. ولكن ما لبث أن اخرس الصراع بنبرة عجرفة وكبرياء. ولم يطل به الأمر، فعاد في اليوم التالي الى المشادة الداخلية التي تهدد بالتأزم. الا أن انجرافه نحو الإثم كبير.

لاحظ زملاء توما تبدل الكثير من حركاته ومواقفه وملامحه. وراعهم خلال هذا الاسبوع استعانته بين الفينة والاخرى بنسخة صغيرة من العهد الجديد وضعها في جيبه، ليراجع آيات عنَّ له ان يراجعها. وفيهم المؤمن والملحد. فسأله صفوان :

— ما هذا الذي تنبشه من جيبك، فتراجعه، فتودعه غمده؟

— العهد الجديد.

— أتراجعه للتشريح والنقد أم للعبادة والعلم؟

— هذا كتاب الله. هو فوق التشريح، وفوق النقد.

— التشريح مهنتك. واسمك توما. وتوما لم يؤمن الا لما لمس. فهل لمست شيئاً؟

— اسم جدي توما. لم أكن توما، اما الآن فقد صرت توما. بعد شك طويل لمست وآمنت بأن يسوع هو «ربي والهي».

— توما لمس على ما جاء في الانجيل. ماذا لمست أنت؟

— الايمان اقوى من العيان. الايمان التصاق. العيان مشاهدة خارجية. يسوع نفذ الى قلبي. يحتضنه شغاف قلبي. هذا أقوى من العيان وأقوى من التشريح والنقد. مع يسوع لا تبقى كما أنتَ وكما كنتَ أنتَ نفسك. مع يسوع أنت فورا خارج نفسك وعالمك.

— بهذا نسفت مبادئ البيولوجيا. أنت خطر على المهنة.

— هل انا طبيب بيطري؟ انا انسان اهتم بتشريح الانسان والحيوان والنبات.

— كيف وصلت الى الايمان؟

— لم اقتنع بأني قطعة لحم وكفى. لم استطع قراءة نفسي تحت المجهر. ما يجري في ذهني وداخلي اعرفه بادوات ذهنية لا مجهرية. الشخص لا يقع تحت الحس ولا يراه المجهر الاليكتروني، لأنه ليس بمادة.

فانبرت زميلتهما ماريا للموضوع، وقالت :

— أنا اومن بالله لان ابحاثي جميعا لم تثبت ان الطبيعة اوجدت الانسان كائنا روحيا حرا مستقلا عاقلا.

صفوان — أريني هذا تحت المجهر.

ماريا — لولا عقلنا المتمتع بالحرية لكنا حيوانات أرقى من سواها فقط. والفكر هو غير مادي. وكذلك العقل اذن. والحرية اوضح دليل على ان الانسان شذوذ على قاعدة خضوع الكون لقانون الحتمية. الا استثناء نادرا. فالانسان، بفضل العقل الحر، يستطيع بحرية ان ينتقل من أقصى اليسار الى أقصى اليمين. كل النظام الاخلاقي والاجتماعي والقانوني والسياسي في العالم قام على أساس مسؤولية الانسان عن الجرائم والخطايا. فهو قادر على أن يرتكب اليوم أبشع الموبقات، ليندم غدا أروع ندامة يعقبها عيش كريم في الصالحات.

أصرّ صفوان على ضلاله، اما الباقون فاعجبوا بحسن تدليلها واومأوا لها بأيديهم بحركات تصفيق وهم يرددون جذلين: الحرية، الحرية هي التي تعطي وجودنا معنى أصيلا.

فاعترض توما وقال:

— لا تنسوا العقل.

ماريا — لو استطعنا أن نفترض — والفرض غير معقول — ان العقل قابل للوجود بدون حرية، فما قيمته وما معناه؟ الا تذكر قول الشاعر في شقاء العاقل بعقله؟ العاقل يختار. افترض انه غير حر، غير متمتع بالقدرة على الخيار. سيكون، اذن، عقله وغرائزه في انسجام. قد يكون بينهما تكامل. يا لهول الكارثة، أما يكون الانسجام والتكامل بين عقله وغرائزه اقدر على الفتك باضعاف مضاعفة؟ الحرية هي التي تفسح لعقلنا المجال للاختيار بين الغرائز والقيم السامية. حيوان عاقل بدون حريّة هو حيوان ذو غرائز قادر بعقله على أبشع الوان الفتك الدائم.

فهتف الكل: عاشت الحرية وسقطت المادية.

فقام صفوان ، وَهمَّ بالخروج وهو يقول لهم : انتم مهووسون ومتعصبون وخياليون .

فهزّ توما رأسه واجابه : تعال ! نحن صاحون . نحن نحبك من كل القلب .

صفوان — لن أعداء .

ماريا — ليست لدينا نيات عدوانية . نحن أعداء العنف .

— لن اعود .

والتفتت ماريا الى توما تقول :

— أود الحصول على نسخة من العهد الجديد مماثلة للتي في جيبك .

— ها نعمة المعمودية قد فعلت فعلها العجيب فيك .

وكرر الباقون الطلب بعينه وسألوه عن الثمن ، فقال :

— ثمن النسخة ليرتان .

فأخرج كلٌّ ليرتين ودفعها شاكرا . ثم انصرف الجميع الى الصفوف .

الفصل الرابع عشر

اتصل توما مساء الجمعة هاتفيا بكاسيانوس ، وقال له :

اود قضاء السبت والأحد في الدير لأشبع من تعليم بخوميوس ، هل ترافقني ؟

— اذهب لوحدك .

وفي الصباح الباكر امتطى سيارته ، وأتى الدير ، ولمّا يبدأْ القداس . فأتاه احد الكهنة ، واستدعاه الى خارج ، وقال له .

— يا أخي ! لم تعتمد بعد . لك حق في حضور جزء من القداس دون سواه . القسم الاخير خاص بالمعتمدين .

ـــ سمعاً وطاعة ! انتظر اشارة منك لأخرج .

ـــ اليك كتاب الخدمة . تابعها . بعد الانجيل ، يتلو الكاهن صلوات خاصة بالموعوظين . قبل البدء بقطعة «ايها الممثلون الشيروفيم سريا» اخرج خارجا ، واقضِ الوقت كما تشاء ريثما تنتهي الخدمة . اهلا وسهلا بك . انت في بيتك وبين اهلك .

ـــ شكرا ! لا اشك في محبة الرهبان للانسان والحيوان والجماد . فالراهب الحقيقي ـــ على ما يتراءى لي ـــ هو تجسيد للانجيل .

ـــ أنا كبير الخاطئين ، يا أخي ! انا أبعد الناس عن هذا التجسيد . خطاياي أكثر من نجوم السماء ورمال البحار وحبات تراب الأرض .

وخرج يتنزه بين الصنوبر اثناء قداس المؤمنين ، مصليا في قلبه . وبعد ساعتين زار بخوميوس ، فهلل للقياه ، وبادره بالسؤال :

ـــ الى اين وصلت؟

ـــ أذهلني سر التجسّد الالهي .

ـــ ما المذهل فيه؟

ـــ أهو امر عادي ان يتنازل ابن الله ليصير ابن الانسان؟ إن تواضع ملك او رئيس ولاقى بترحاب كبير مواطنا عاديا شهق الناس لهذا التواضع . وان عانقه رفض كل انسان ـــ لم ير المشهد ـــ ان يصدق ان الملك عانق مواطناً عاديا .

ـــ ملك ارضي لا يتنازل ، لأنه جعل كبرياءه الهه ، وانتفاخه مجده . ابن الله لا يتكبر ولا ينتفخ . الملك الأرضي يشعر بأن الناس ملزمون بخدمته . ابن الله هو المحبة . محبته تقوم عفويا بخدمة الناس ، لان من طبع المحبة ان تحتضن قضايا الناس .

ـــ يسوع ملك . ولكنه ملك في خدمة الجميع ، لمصلحة الجميع ، الجميع محتاجون اليه . وهو غير محتاج الى احد الا ضمن حدود حرصه على خلاص كل انسان حي .

ـــ هل اغلق عليك فهم اي شيئ في السر؟

— عجزت عن فهم كيفية اتحاد الطبيعتين في اقنوم واحد.

— يسوع اله وانسان. ولكنه ليس اقنومين اي شخصين هو شخص واحد.

— هل يضم الشخصُ الواحد الالهَ والانسانَ؟

— في الاساس الاله شخص. وكل انسان شخص. ولكن يسوع ليس شخصين والا صار اثنين لا واحدا.

— لم افهم شيئا.

— يسوع واحد لا اثنان، كيف هو واحد؟ لاهوته وناسوته اثنان لا واحد. بقي ان ننقب عن مسند الوحدة. لا يبقى لنا سوى القول ان شخصه واحد في طبيعتين.

— هل من شيئ في الطبيعة يصلح مثلا؟

— لا ! الا أننا نرى الانسان مركبا من روح وجسد، بينما شخصه واحد.

— الأمر عسير على الفهم.

— انه سر الخلاص. ديانة بلا أسرار هي ديانة وضعها العقل البشري. امور الله تفوق الادراك. نقبلها في السجود لا في التفلسف.

— أفِض في الشرح.

— يسوع هو الشخص الثاني في الثالوث القدوس. شاء في آخر الازمنة ان يخلصنا، فاتخذ من مريم البتول طبيعة بشرية ضمها الى طبيعته الالهية. ولكنها بدون شخص. لذا صار شخص الابن شخصاً للطبيعة البشرية. قبل التجسد كان شخصه الالهي يحوي الطبيعة الالهية، أما الآن فهو يحوي الطبيعتين الالهية والبشرية.

— الدمشقي يقول ان الابن وحده تجسّد، دون الاب والروح القدس، الا أن طبيعة الثالوث واحدة.

— هذا اعتراض وجيه. ان اقنوم الابن هو الذي تجسد دون اقنومي الاب

والروح القدس. الطبيعة الالهية لا تتجزّأ بينهم. والباقي سر الله. لا احد يعرف من هو الابن الا الآب ولا احد يعرف الاب الا الابن.

— في النهاية سر التجسد الالهي صليب للعقل.

— ولكنه بلسم للروح، لولاه لكانت علاقتنا بالله مستحيلة. رفع الانسان من الأرض الى السماء، مع المسيح، نحن في السماء ولو كنا موقتا على الأرض. عقلنا بائس. وجودنا تعيس. الوجود غامض. المصير مجهول. القبر كابوس. سر التجسد صليب. ولكنه صليب يبشر بالقيامة. به تحطمت سفينة اليأس واشرق الرجاء والأمل المنشود. أفضّل البؤس مع سر التجسد على الفرح مع ما عداه. في التجسد اكتشفت قيمة وجودي ومعنى حياتي. ادم وحواء جسد واحد. في بولس الرسول: انا والمسيح روح واحد. يا للعمق!

— اعلن لك ايماني به.

— أقليل، يا توما، ان أتّحد انا الترابي الهزيل بيسوع؟ لاهوته الحالّ في ناسوته، مدّد حلوله هذا الحيّ كما ستسمع فيما بعد. اتخاذه اياي عروسا هو اقوى من زواج آدم وحواء كما قلت لك قبل هنيهة.

— اسجد للاله الصائر انساناً. انا، منذ هذه اللحظة، مجنون مجنون، مجنون بهذا السر. سجل علي هذا الاقرار. لا رجوع عنه.

— انتظر قليلا. بقي عليك ان تطالع الفصلين المتعلقين بالفداء من الدمشقي ومن «سر التدبير الالهي».

— ساطالعها بعد الظهر. أعرني كتاب «سر التدبير الالهي».

فتناوله وخرج الى الدير ليتناول الطعام وينصرف الى المطالعة.

طالعها بشغف، فاشتاق الى مطالعة رواية الآلام الطاهرة في الاناجيل. وقضى يومه في تأمل آلام الرب ودفنه وقيامته.

وفي اليوم التالي حضر قداس الموعوظين، وخرج الى بستان الدير يستمتع بالمناظر

الخلابة حينا ، ويغمض عينيه للصلاة حينا اخرى حتى حن له ان يزور بخوميوس. فرحب هذا به بصورة جديدة ، وقال :

— هل خرج دماغك من جمجمتك؟

— لا ! عاد.

— بالأمس قلت إنك مجنون؟

— كل جنون جنون الا الجنون بيسوع فهو تمام الصحو والتعقل.

— هات مما عندك.

— اله تجسد حولني الى مجنون. اله تألم حوّلني الى مشدوه في جنونه. اله قام من القبر جعل جنوني خطيبا مصقعا وشاعرا مبدعا ينظم التسابيح لالهنا الذي ظهر على الصليب مثقوب اليدين والرجلين بالمسامير ومفتوح الجنب بالحربة بين لصين خطيرين. لكي ينقذني انا اللص الاردأ منهما باضعاف مضاعفة.

— كيف صالح الله الناس؟

— بدم ابنه.

— ماذا صنع هذا الدم؟

— أَعْلِمْني.

— دم يسوع كفّر عن ذنوبنا. يسوع ذبيحة مقربة على الصليب لتطهيرنا من اثامنا واسقاط اللعنة المكتوبة علينا من جراء معاصينا. محا صك الخطايا فصرنا مطهرين بدمه لأنه اله وانسان. قرّب جسده ذبيحة للآب فمنحنا تطهيرا ابدياً. كإله وانسان اضحى الوسيط بين الله وبيننا. بدمه وموته زال العائق الذي كان يعوق اتحادنا به مثلُ اتحاد ناسوته بلاهوته. دمه جبلنا من جديد خليقة جديدة. في يوم الجمعة خلق الله آدم وخلق حواء من جنبه. ويومَ الجمعة خرج الدم والماء من جنب يسوع. الكنيسة قائمة على دم القربان وماء المعمودية ، فولدت بهما من جنب يسوع

كحواء جديدة المغُ من الأولى، بمقدار ما الولادة من جنب يسوع المع من ولادة حواء من جنب آدم.

— غدا حين اعتمد سأكون مولودا من جنب يسوع؟

— نعم!

— زدتني جنونا فوق جنون.

— ما العبرة لما تقوله الآن، بل لاستمرار تقدمك فيه بصدق ووفاء؟

— لماذا تؤكد كثيراً على الصدق والوفاء؟

— لئلا تكون مزيَّفاً. وهذا يحتاج الى صيرورتك صدقا في النيات والافكار والاقوال والافعال. أي ان تكون مطابقا للحقيقة السامية في كل شيئ بوفاء كامل ليسوع اصلنا. هو الأصل ونحن الصورة. فكن صورة حقيقية لا مزيَّفة.

— صلِّ لكي اكون كذلك.

— عد بعد الظهر لأسلمك درساً جديدا.

فخرج وتناول الطعام في الدير وعاد قبيل العصر. فاخرج بخوميوس كتاب «الحياة في المسيح» لكابازيلاس و«المعمودية» للذهبي الفم وعدداً من مجلة «النور» (٣ لعام ١٩٧٩) والافخولوجي، وسلمه اياها ليطالعها، ويعرف ماهية المعمودية. وأوصاه بحفظ دستور الايمان غيباً ومطالعة شرحه. فقال توما:

— اما حان اوان اعتمادي؟

— يبدو انك لم تفهم خطتي؟

— ما هي؟

— الحرص على اضطرام شوقك الى المعمودية لتنزل كلمة الله ونعمته في ارض طيبة لا أثر فيها للتزييف.

— المعمودية تقضي على التزييف.

— إن كنت صادقا امينا وفيّاً لها كل الوفاء. قد تحتاج مطالعة الكتب المسلّمة اليك الى اسبوعين. ولكن يمكنك الحضور في الاسبوع القادم. طالع ايضا في الدمشقي عن الاسرار. سأتولى بنفسي شرح كل شيئ عن المعمودية لتنسجم في ذهنك الاقوال المبعثرة عنها هنا وهناك لدى الآباء القديسين.

— سأتلو ايضا ما جاء عنها في العهد الجديد.

— حسناً تفعل.

— سأعود الآن الى الغرفة في الدير لاطالع.

— الهمك الله الفهم والرشد وسداد الرأي.

عاد الى الغرفة وتردد بين الكتب. القى نظرة على كل منها، ثم تناول كتاب الذهبي. وانتقل بعد ساعتين الى كتاب كابازيلاس. وعاد الى الدمشقي في الليل. راعه التفاوت الكبير في الاسلوب، فقرر ان يزور صباحا بخوميوس قبل العودة اتاه، فقال:

— اسلوب الذهبي وكابازيلاس شعلة من نار. اسلوب الدمشقي جافّ.

— الدمشقي راهب في دير يكتب عرضاً مسلسلاً للايمان، منضبطاً كالرهبان. الذهبي رسول ينبض حرارة وحماسا. كابازيلاس متصوف حار الروح. ومع هذا فاناشيد الدمشقي عندنا تعوّض عن برودة كتابه. أي الاسلوبين راق لك؟

— الأول اقرب الى قلبي. والثاني اقرب الى عقلي.

— لولا الايمان لكان بعيدا حتى عن عقلك، ليست الديانة نظاما عقليا او فلسفيا. العقل في ديانتنا ينزل الى القلب. الانفصام بينهما مرفوض، والا بقي الانسان خاضعاً للتجزئة الداخلية بنت الخطيئة.

— أتريد ان تقول ان انعطاف القلب يؤثر في قناعات العقل؟

— حتى باسكال قال: «للقلب اسبابه التي لا يعرفها العقل». اتحاد القلب والعقل عندنا رئيسي جدا. اطمئنان القلب وثقته هما جوهر الايمان الحقيقي. التصديق جزء من الايمان. وهو الجزء الاضعف.

— آمنت. آمنت. متى يتم تعميدي؟

— إلحاحك شرقي. الذي يأتي رخيصا يذهب رخيصا. ومن استعجل الشيء قبل اوانه فوجئ غالبا بحرمانه. اصبر.

— تركت تحديد الموعد لحكمتك. لا تلمني على ازعاجي الشرقي الطابع كما قلتَ. فالى الاسبوع القادم.

— حرسك الله وحملك الي كتلةً من نار الايمان الصادق الناضج المعتدل.

وانطلقت السيارة الى الجامعة مباشرة والقلب مغتبط والنظر مرتاح. وكان قد اشترى نسخ العهد الجديد، فوزعها على الشارين. فتناولته ماريا باحترام وقبلته واودعته حقيبتها.

ونظر صفوان اليهم شذرا، فابتسموا له، وقالت ماريا:

— هل تقبل ان اهديك نسختي؟

— لا!

— اما تحب الاطلاع؟

— طالعته. فلم يرق لي.

— لم يرق لك في الماضي. قد يروق لك في المستقبل.

— أنا بغنى عن أن احشو رأسي بالاسقام والمعوّقات

— عجبا!

— هذا عدو النمو الحضاري.

— ولكنه كابحُ الغرائز وممدّن الانسان.

— المدنية بدونه تكون في الف خير.

— واين المدنية بدونه؟ لولاه لأكل الناس بعضهم بعضا كالسمك.

— الدولة تحمي الاخلاق، لا الانجيل.

— المفاهيم الاخلاقية السليمة هي بنات الانجيل. اذكر لنا المفاهيم السامية السابقة له؟ اذكر شخصا دنا الى رفعة اخلاق المسيح.

— هناك آخرون سواه.

— هل من مثيل له؟ هل من صُمد مثله ١٩٥٠ سنة وبقي في مرتبته السامية؟

— لا! ولكن من يدري. هناك عظام آخرون. ولكن عمرهم لم يبلغ مئات السنين.

— الصمود هو الأساس. يسوع صمد وسواه لم ولن يصمد.

— المستقبل كفيل بذلك.

— هذا أمل ابليس في الجنة.

— افكاركم ثابتة. اليكم عني.

— لم نطردك بينما تطردنا أنت. فمن هو صاحب الافكار الثابتة؟

— وداعاً.

وضحك الحاضرون بلطف وفي القلب حزن على عناده زورا. وانصرف كل الى عمله.

وحرص توما خلال هذا الاسبوع على ان يوفر الوقت للمطالعة والصلاة، فاعتزل الناس بنسبة كبيرة. الا ان سليمان استمر يلاحقه وقد اشتد الصراع في داخله. فالتقاه، فقال سليمان:

— أرّقتني مراراً. كنتُ انصرف الى ملذاتي بدون توبيخ ضمير. أُضرمتَ في صدري توبيخه. عودتك الي اسهل من سيري في ركابك.

— بينك وبيني هوة عميقة بعد. دع ضميرك يعمل عمله تنجح.

— يقطعني عن ملذاتي.

— طاعة ضميرك خير من ملذاتك.

— القناعة مستحيلة. ضميري يعذبني بينما ملذاتي تبتهجني.

— هذا موقت وزائل.

— ولكن حياتي مندمجة فيه. فوداعا لئلا تزيد في آلامي.

الفصل الخامس عشر

واكب توما على الكتب يرقص طربا. واعلم كاسيانوس بانشغاله، فشجعه على الاكثار من زيارة بخوميوس لوحده في هذه المرحلة. لاحظ انه بحاجة الى عرض اجمالي منسق وشامل، فامتطى السيارة بعد ظهر الجمعة. استقبله بخوميوس، كالعادة، وقال:

— يبدو انك استعجلت.

— لا! ولكني تشوقت الى معرفة كل شيء عن المعمودية لانها باب الحياة.

— اسمع يا توما! يسوع عاش على الأرض أكثر من ٣٣ سنة. وعاشر الناس. واختار تلاميذ اخصّاء رافقوه ليل نهار، وشاركوه في الطعام والشراب والنوم تحت سقف واحد. الا أنهم بقوا الى جانبه، وخارجين عنه.

— ونحن؟ هل وضعنا احسن من وضعهم؟

— في يوم العنصرة تبدّل كل شيء.

— كيف؟

— يسوع تألم وقبر وقام في اليوم الثالث، وصعد الى السماء، وجلس عن يمين الآب. ففارقنا اذن.

— نعم!

— ولكن في يوم العنصرة، الروح القدس أَعاد يسوع من السماء الى الأرض بصورة خفية سرية. عودته سر.

— أين يسكن؟

— هذا سر ايضا. يسكن في المعمودين.

— حدثني عن العنصرة

— في يوم العنصرة اسّس الروح القدس الكنيسةَ عروسَ المسيح وجسَدَه المأخوذ من جنبه. حلّ على الرسل وصحبهم، فعمدهم، فكانوا الكنيسة اي جسد المسيح. صار كل منهم عضوا في هذا الجسد. وملأ الروح القدس هذا الجسد بالمواهب والعطايا.

— ما الفرق بين حال الرسل اليوم وحالهم امسِ؟

— بالأمس كانوا جلساء المسيح. اليوم أضحوا امتدادَ المسيح. في العنصرة تمدَّد يسوع في الكون. المعمودون جزء لا يتجزّأ منه. ادخلهم اعضاءَ الى جسده، ضمهم الى جسده، صاروا قائمين فيه، صاروا امتداداً له.

— هل هم وصلات له؟

— حاشا! بحكمته غير المدركة قد جعلهم اعضاءه لا وصلات خارجية. نحن لحم من لحمه وعظم من عظامه أكثر مما كانت حواء بالنسبة الى آدم.

— كابازيلاس تحدث عن ذلك.

— نعم! يسوع موجود في كل جزء من كيان المعمود، فلا رأسك ولا دماغك ولا عصبك موجود فيك بهذا القدر. ولا روحك تحل في كل مكان من جسمك بهذا القدر. أما يسوع فيحضر بقدرة لاهوته في المعمود بصورة اقوى بكثير من حضور أي شئ آخر.

— يعني انه يتحد بي أكثر من اتحاد روحي بجسدي ورأسي بجسمي على رأي كابازيلاس.

— الكنيسة هي جسد يسوع. نحن جسده مقر لاهوته. يا لهول السرّ!

— كيف يتم هذا؟

— بالمعمودية.

— هي، اذنْ فعلٌ خلق جديد يُوصلنا بالله مباشرة. كيف؟

— هي الخلق الحقيقي. ولادتك من امك جرت وفقا لناموس وضعه الله في الطبيعة. الولادة في المسيح بالمعمودية معجزة خلق تتم حين اجراء السر.

توما — وافني بالشرح تفصيلا. فهذا السر قد يزيدني جنونا مضاعفا فوق جنون.

— في البدء صنع الله جسماً من تراب، ونفخ فيه، فكان آدم. ولكن قبل آدم والكائنات الحية كان روح الله يرفّ على وجه المياه. وفي الأصل العبري كان «يحتضن المياه». الدجاجة تحتضن البيض. كذلك كان روح الله يحتضن المياه. ومن المياه خرجت الكائنات الحية. وفي جرن المعمودية يحتضن الروح القدس الماء، فيتم خلق المولود. وهذا لا يكون لا من لحم ولا من دم ولا من مشيئة رجل. في البدء كان الله يأمر فيتم الخلق.

— وفي جرن المعموديّة؟

— الروح القدس يُنجز الخلق.

— إنَّ خلقَ كل مولود منفصل عن خلق سواه اذن؟

— نعم! الروح يخلق كل مولود لوحده. لا وراثة في المعمودية.

— هذا رفض لقول القائلين ان الله خلق الكون في البدء وانتهى الأمر.

— كلما اعتمد انسان تم خلق كائن جديد.

— في قصة آدم صنع الله الجسد أولاً. فكيف الحال في المعموديّة؟

— الأولوية للروح الذي يحتضن الماء، الذي يحل في الماء فيمنحه قوة التوليد.

— ما زال الامر مشمولا في ذهني بالغموض.

— من آدم الفاني كان النسل الفاني. ومن المسيح آدم الثاني كان النسل الباقي. في آدم يموت الجميع، في المسيح يحيا الجميع.

— هل ماء المعمودية، ماء عادي؟

— لا! الروح القدس حل فيه فمنحه قوة التوليد، الله تجلّى فيه.اما سمعت ان روحَ الله كان يحتضن المياه وان الحياة خرجت من الماء؟

— ما لون ولادتنا في المسيح؟ ما لون موتنا في آدم وحياتنا في المسيح؟

— الاسرار هي تدبير الهي لنشارك في حياة الله، لنصير شركاء الطبيعة الالهية. اندماجنا في السر يعني دخولنا الى قدس اقداس الفوقيات الالهية.

— ما زال الغموض قائماً.

كيف انا في آن واحد ابن آدم ومولود من المسيح؟

— السؤال وجيه وعسير. المسيح اتى ليخلصك باسلوب فريد. فإنْ دفنَكَ حقيقة وخلق آخر سواك لا يصيبك من الخلاص شيئ. جاء ليخلصك انتَ شخصيا.

— كيف؟

— تعرف — طبعا — ان هناك نوعين من الزيتون، وان احدهما ينال طعما من الآخر نسميهما في اللغة العامية «الزيتون البري والزيتون الجوي» وفي اللغة الفصحى «الزيتون البري والزيتون البستاني».

— اعرف هذا. وماذا بعد؟

— بولس الرسول استعمل هذا المثل. وهو يعطي فكرة عن المعمودية.

— كيف؟

— المعمودية تضع فيك انت ابن آدم طعماً اسمه يسوع. وهذا الطعم صالح لان يبتلع آدم فيك شيئا فشيئاً. ينمو فيك على حساب آدم حتى التمام، فتبلغ انت انذاك ملء قامة المسيح.

— العملية هي اذن نوع من التجلي؟

— ولذا سيتم اعتمادك يوم عيد التجلي. في المعمودية يدخل يسوع عليك. فهي ولادة، واعادة ولادة. وقل فيها ما شئت لهذه الجهة، لأنها إعَادة تكوين. انها خلق جديد. والمعمود خليقة جديدة.

— هل المعمود اعظم من آدم قبل السقوط؟

— آدم مؤلف من تراب ونفخة الله. المعمود مولود في المسيح، هو اخ للمسيح وعضو في جسد المسيح وابن لله بالتبني. فأين آدم من هذا؟

— أوضح.

— يسوع هو ابن الله. صار انساناً. ولكنه اقنوم واحد. اقنومه هو اقنوم ابن الله. الآب السماوي هو آب للاقنوم. اقنوم الابن كلمة الله، صار اقنوماً لناسوته. الآب السماوي صار كذلك اباً للناسوت. لم يلد الناسوت من جوهره. ولكن الناسوت متحد باللاهوت بلا انفصال. اقنوم الابن لم ينقسم بين اللاهوت والناسوت. هو اقنوم واحد للاثنين. لا ينقسم بينهما. لا ينفصل احدهما عن الآخر.

— تابع.

— بولس قال: «انتم الذين بالمسيح اعتمدتم المسيح قد لبستم». وقال اننا اولاد الله بالتبني. وفي الكتاب جاء اننا ابناء الله واخوة المسيح. فالآب السماوي ولدنا بالروح القدس الذي ارسله يوم العنصرة باسم الابن، فطبع يسوع فينا، فصرنا جسدَ يسوع. وما دام يسوع فينا أخاً تؤماً لنا، فنحن اخوته. ونحن ابناء الله بالتبني بواسطته. فهو ابن الله كما قلنا. وباشتراكنا فيه صرنا مثله ابناءً قد تبنَّانا الله.

— هل نحن متحدون بالله اتحادا اقنوميا مثل يسوع؟

— سؤالك عظيم. يسوع اله وانسان معا. اقنومه واحد في طبيعتين. وضعه خاص من هذه الناحية لان اللاهوت فيه اتحد بالناسوت. اقنومه الالهي الحاوي اللاهوت اتخذ ناسوتاً. في امرنا، المسألة خلاف ذلك.

— كيف؟

— جوهر الله بعيد المنال. نعمة الله الشارقة من لاهوته، من جوهره قابلة لأن تحلَّ فينا، وتصنعنا آلهة بالنعمة لا بالجوهر.

— والفرق؟

— يسوع هو ابن الله حقيقة. نحن ابناؤه بالنعمة. الاتحاد الالهي في يسوع هو اتحاد بين جوهر اللاهوت وجوهر الناسوت في اقنومه الواحد. نحن نتحد بالنعمة، بالشعاع الالهي.

— ما الذي سكن في ناسوت يسوع؟

— ناسوت يسوع لا يسع جوهر الله والا صار الاله موسوعاً. الاتحاد الاقنومي سكب في ناسوت يسوع كل ما يستطيع ان يستوعبه الناسوت من اشعة اللاهوت. صار اللاهوت مسحة للناسوت، وهذا امتلأ بالمسحة.

وهكذا اتاح لنا نحن أيضاً ان ننال هذه الاشعة. الا أن ناسوت يسوع متحد اقنوميا باللاهوت بينما نحن نتحد بالنعمة. نصبح أبناء الله، ولكن بالنعمة لا باتحاد اقنومي. نعمته تشرق في اشخاصنا البشرية.

— ما ادق هذا التفريق؟ هل نصبح آلهة؟

— نعم! يسوع استشهد بآية تقول اننا آلهة. ولكن بالنعمة لا بالطبيعة. نعمة الله هي الهية. الله اله بجوهره. نحن آلهة بنعمته. سكب فينا هذه النعمة فألّهنا. هذا هو التأله في المسيحية. ليس انتفاخا بشريا، بل إنعاما إلهيا. هو اله بذاته. نحن آلهة بفضله ومنّته وذلك بالنعمة. وكل هذا امتداد لتجسده الذي صيّر الانسان الهاً.

— فاذن، عبر اتحادنا بيسوع نتحد بالله؟

— طبعا. لولا يسوع لبقي الانفصال قائما بيننا وبين الله.

— وهذا الاتحاد، هل تعتبره أهمَّ من فردوس آدم؟

— وهل من وجه للمقابلة؟ كان آدم في حديقة اشجار. يسوع هو حديقتنا، هو فردوسنا. نحن نسكن فيه وهو يسكن فينا. فردوس آدم ارضي. أما المعتمد فهو

يحيا في يسوع بصورة سرية منذ الآن. ويجلس معه في السموات سريا ريثما نظهر معه في المجيء الثاني. الآباء قالوا ان الانسان صعِد في التجسد الالهي الى مرتبة تعلو مرتبة الملائكة. طبيعتنا الموجودة في يسوع اتحدت اقنوميا بالله. هذا المجد لم يحصل عليه الملائكة الذين هم خادمون لوارثي الخلاص. هم خادمون لنا.

— ولكن ما الفرق بيننا وبين المسيح بعد المعموديّة؟

— يسوع اتخذ من مريم العذراء ناسوتاً كاملاً وطاهراً. الروح القدس طهرها. فجاء يسوع بتولا من بتولة. لم تصل اليه قابلية الانسان لارتكاب الخطيئة. هو بلا خطيئة، ومتحد اقنوميا باللاهوت. لاهوته صبّ في ناسوته كل الكمالات، فصار معصوما بالطبع من الخطيئة. ما كان ناسوت يسوع قابلا لان يرتكب خطيئة.

— نحن نخطأ بعد المعمودية؟

— لان ادم ما زال موجودا فينا. ونقمة آدم فينا على يسوع ونقمة الشيطان علينا تجعلان المعمود الخائف الله عرضة لهجمات الجسد والشيطان أكثر من غير المعمودين.

— وَضْعُنا بعد المعمودية معرض للمخاطر الكبرى اذن؟

— نعم! الشيطان يجمع فلوله ويسخِّر اهواءنا وجسدنا لمعارك الحسم.

— المعمودية هي اذن جندية؟

— نعم! كفاك الآن ما نلت. أجّل الامر الى غد.

— عندي استعداد للسمع والاستزادة.

— ولكن الحكمة تقضي بالتقسيط، لأن التخمة مضرة مثل انعدام التغذية.

— واْصِلْ صلواتك من أجل حسن اهتدائي.

— هي متواصلة. ظلّلك الله كما ظلّل مريم العذراء ليلد فيك ابن الله.

— لم تطرق لي موضوع الفرق بين ولادة يسوع من العذراء وولادته فينا.

— غداً. امضِ بسلام وارتح.

فمضى الى غرفة في الدير يقضي الليل اسيراً للأضواء الكاشفة التي القاها بخوميوس عليه. وحضر في الصباح قداس الموعوظين وخرج من الكنيسة. وعند الضحى زار بخوميوس. ففتح فاه وقال:

— اقنوم الابن اخذ من مريم ناسوتا بشريا حملته في بطنها ٩ اشهر، فولد كما نلد مع فارق هو انه بلا خطيئة. فبقيت العذراء عذراء. وولدته بدون مخاض.

طبعاً اتخاذه ناسوتا منها لا يعني انها اتحدت باقنومه. بقيت انسانا ولكن في أعلى مرتبة وبعد الولادة صار يسوع خارجها. ولكنه عاد اليها في العنصرة كما عاد الينا.

— يا للسر! حتى مريم نفسها ما ملكت يسوع بالتمام الا في العنصرة.

— نعم! مريم نفسها عضو في جسد يسوع. وهذا تم للجميع في العنصرة.

— نحن ومريم في جسد واحد اذن؟

— نعم! ولكنها هي اعظم المخلوقات جميعا. الا تلاحظ في ايقونات العنصرة وجود مريم في وسط التلاميذ؟

— لم تعلمني بالتفصيل عن اثر المعمودية فينا كجسد يسوع.

— قلت لك انها طعم. يسوع دخل الينا كجسم جديد. وهذا الجسم هو، ككل الاجسام، ذو اعضاء وحواس. ألم يقل بولس: «أآخذ اعضاء المسيح واجعلها اعضاء زانية؟» (كورنثوس الأولى ٦: ١٥). نحن اعضاء المسيح افرادا وجماعات. المسيح فيّ برمته وفي كل معمود آخر. نحن جميعا جسد المسيح الواحد. ومع هذا فهو بتمامه في كل واحد منا. وكل واحد منا عضو للآخرين يتصل بهم في يسوع والروح القدس اتصالا عضويا سريا، كما تتصل اعضاء جسم الانسان بعضها ببعض.

— يا لهول السر!

— يسوع سيلصق على عينيك عينين جديدتين، وعلى اذنيك اذنين جديدتين، وعلى يديك يدين جديدتين، وعلى رجليك رجلين جديدتين. وانذاك يصح قول

بولس : «فلست انا حيّاً بعد، بل هو، المسيح، يحيا فيَّ» (غلاطية ٢ : ٢٠) «به نحيا ونتحرك ونوجد» (اعمال ١٧ : ٢٨).

— الحياة والحركة والوجود؟

— نعم! المعمودية تمنحك الوجود، قبلها يقف يسوع خارجك.

— ولكن الم يخلقني الله على صورته ومثاله؟

— ابوك آدم وامك حواء خطئا، فاظلمت الصورة، ووهنت قواها، وصارت عاجزة عن الاتحاد بالله. يسوع جدّد الصورة الساقطة قديما. جبر الكسر. يوم كان آدم في الفردوس فشل في الثبات. أَبعدَ السقوط ووهن قواه هو قادر على الارتقاء الى حيث كان؟

— يسوع لم ينسف بنياننا.

— لو نسفه، ووضع آخر لكان هذا غير الأول. هو جاء — كما قلنا أمس — ليخلصك أنتَ لا لكي يخلق خلقا جديدا لا علاقة لك به.

— الكل كان لأجلي اذنْ؟

— لو خلق خليقة سواك لما احتاج الى الصلب والموت والقيامة. هذا كله انما كان لكي يخلص آدم الساقط فيك. سقوط آدم امتد الى النسل كله فاظلم برمته لأنه من بذرة مريضة.

— للمعمودية مفعول تطهير وتبرير وتقديس حتماً على ما قرأت. اشرح لي الأمر تماماً.

— أغضبَ ادمُ وحواءُ الله وانفصلا عن مجده. ومال الانسان الى الشرّ منذ حداثته. وصار الاتحاد بالله مستحيلا على قوانا الملوثة المريضة بالاثم. فجاء دم المسيح يطهرنا من الخطيئة ويبررنا ويقدسنا. الفساد دخل الى طبيعتنا. صرنا قابلين للانحلال والموت والبلى. صار الموت مرحلة حتمية من مراحل حياتنا. نولد لنموت.

— المعمودية هي اذن حمام دم؟

— نعم! ارتباطها بدم المسيح مطلق. الم يجر ماء ودم من جنب المسيح؟

الروح القدس في المعمودية يغسل الخطايا بدم المسيح، فيتم التطهير والتبرير والتقديس.

— وما علاقتها بموت المسيح وقيامته؟

— المسيح المولود في المعمود هو المسيح المائت القائم. الارتباط بين جرن المعمودية وقبر المسيح وثيق. جرن المعمودية هو رحم ولادة على صورة قبر المسيح. الا ترى ان الاجران المحفورةُ اصولا بيضاويةُ الشكل؟ الا ان هناك مثمنات اي ذات ٨ اضلاع.

— ماذا تعني؟

— في عيد الفصح نأكل البيض المسلوق اعتبارا لرواية قديمة عن تشبيه قيامة المسيح من القبر بسلطته الذاتية وقدرته، بخروج الصوص من البيضة. وفي جرن المعمودية البيضاوي الشكل يتم دفن المعمود. ثم يقوم كما قام المسيح من القبر. والقيامة هي حياة بعد موت. اما الثماني الاضلاع فهو يعني البُعْدَ الكوني للمعمودية، اذ للكون ٨ جهات.

— بولس تكلم عن القيامة مع المسيح.

— في رسالته الى رومية التي تتلى اثناء خدمة المعمودية يأتي ذكر ذلك صراحة.

— سأكون يوما قبرا للمسيح اذن؟

— نعم! قبر المسيح هو ينبوع حياتنا، بموت المسيح مات الموت وأبيد، بقيامته عدنا الى الحياة. صليبه مزَّق صك الخطايا، وكفّر عن ذنوبنا، فبشّرنا بالفرح الاعظم.

— والمعمودية تكرار لكل هذا؟

— نعم! المعمودية اعادة للحبل بيسوع وولادته وآلامه ودفنه وقيامته وصعوده وذلك كله في المعمود. كل حياة يسوع من البشارة حتى الجلوس عن يمين الأب

التي طالت أكثر من ٣٣ سنة تتكرر في لحظات المعمودية. تدخل الجرن وأنت ابن آدم، لتخرج منه وأنت المسيح القائم من الاموات الممجد بالجلوس عن يمين الآب.

— أأنا المسيح؟

— نعم! ستكون المسيحَ. اسمنا «مسيحيون». هو المسيح ونحن المسيحيون. فنحن منه. اليه ننتسب. هو المسيح ونحن المسحاء.

— كيف؟

— المعمودية نفسها مسحة تجعل كل واحد منا مسيحاً.

— بالأمس أنت صرفتني. اليوم انا ساصرف ذاتي. فان عقلي لم يعد يستطيع أن يتحمل. دعني اتمثَّل هذا الطعام النوراني بِتُؤدَة. وداعا قصيرا.

الفصل السادس عشر

خرج من لدنه وانطلق في سيارته شرقاً باتجاه الجبل الى الفندق. وكان الطقس جميلا، فانزوى بين الشجر يحتسي فنجان قهوة. وأخذ يستمتع بجمال الطبيعة حينا، ويقرأ في الذهبي وكابازيلاس حينا اخرى، ويتأمل ما سمعه حينا ثالثة. وتنازعته العوامل الثلاثة حتى تعب، فاختار الالتفات الى الطبيعة والترنيم بصوت منخفض. وكان يبتكر الترانيم عفواً، وينظم الاشعار الروحية لحينه ويرتلها. وخطرت له فكرة، فقال لنفسه: هذا الكون الجميل معجزة من معجزات الله. ولكن هل يعادل سر المعمودية في الاعجاز؟ فأجاب: لا! وسأل نفسه: لماذا حرمني بخوميوس منها اسابيع؟ العله يريد ان يلتهم الشوق كل رخاوة نفسي وتشبكها بافكار الدنيا ومشاغلها؟ هل خاف علي ان اعود الى الحمأة السابقة كخنزيرة مغتسلة عادت الى التمرغ؟ هل طبيعة الانسان غير موثوقة الى حد خشي معه انقلابي على حالي وتقلبي بين الاطوار المتناقضة؟ هو حتما خبير بالنفس البشرية. لولا علمه بضعفها لما سوَّفني حتى ٦ آب. من يدري؟ قد يكون ذلك لخلاصي. الانسان يتقلب كأبي براقش. لا

يثبت على حال . ولا يستقر على مبدأ . وما من خُلٍّ وفيٍّ . كم رأيت من أُصدقاء في الامس قد تحوّلوا الى اعداء اليومَ . والعكس بالعكس . من يضمن بقائي وفياً ليسوع حتى المشنقة ؟ لست من طينة غير طينة الناس . فانا اتّون اهواء مستعرة تشنّ الحرب على الله . ومنذ اهتدائي حتى الآن نشطت المعركة الى حدود قصوى في داخلي حتى اني اقاوم الاختناق . ولكن لن اتراجع ، عرفت الحق ، فلن اعود الى الظلمة .

وللحين وصلت سيارة تضم ماريا واهلها . فالقوا عليه التحية . فاستدعاهم الى طاولته . وبعد الحاح قبلوا الدعوة . فاتخذ كل منهم مقعدا حول الطاولة . كان يرافق ماريا كل من زوجها فيلبس واخيها تيطس واختها صالومي وولديها يوحنا وسوسنة . وبعد المجاملات المعتادة التفتت ماريا الى الطبيعة وقالت لتوما :

— هل انت زبون دائم هنا لأهنئك من كل قلبي؟

— في هذا الربيع اخذت اتردد الى هذا المكان الرائع .

— اما تفتقت قريحتك لنظم الشعر؟

— والترانيم ايضا .

فيلبس — الموقع ساحر ويدعو الى الانشاد .

صالومي — هذا موقع من اجمل مواقع هذه البلاد .

يوحنا — انظري ، امّاه ، الى الصنوبر منتظما في صفوف من الخضرة .

سوسنّة — ما أجمل التزحلق على رؤوس الشجر لو كان ذلك ممكناً .

فيلبس — التحليق بالهليكوبتر فوق هذه المناظر ينعش الصدر .

ماريا — ما هذا الهواء العليل؟

تيطس — والمناخ الممتاز؟

صالومي — ما اطيب « التبولة » هنا ان كانت مصنوعة في المنزل على ما يرام !

يوحنا — دعونا نعود في الاسبوع القادم مع التبولة .

ماريا — ما بالك شارد يا توما؟

— كل يفتش عن ليلاه. ليلاكم تبولة وليلاي شيئ آخر.

— أين وصلت؟

— كلما قطعت شوطا بدأت اشواطاً.

فيلبس — ما الاشواط؟

— اتدرب على الديانة على يدي الناسك بخوميوس في دير الحرف.

صالومي — افي هذا الموقع تحطم رأسك في مثل هذه الامور؟ كل واشرب واشرح صدرك.

تيطس — هل الاكل هو كل شيئ؟

— في هذا الموقع هو أهم شيئ.

ماريا — دعي افكارك تصعد الى أعلى من ذلك. ليس بالخبز الفاني وحده يحيا الانسان. عابدو الطعام هم فرائس ابليس السهلة.

— اتدّعين ان الطعام غير مهم هنا؟

— هو مهم. وستتناوله بعد قليل. ولكن لا تضعي عقلك في بطنك، فيضيع رشدك.

توما — اتريدون ان تحتسوا شيئا الآن ام تؤجلون الامر الى ما بعد الغداء؟

تيطس — انا افضل التريث.

وثنّى الجميع. ثم قالت ماريا لتوما:

— الزملاء وانا نطالع في العهد الجديد ونذكر فضلك علينا.

— الفضل لله لا لي. مَن أنا لاسجل افضالا على الناس بعد ان غمرني الله بفضله؟

فيلبس— ماريا حدثتني مراراً عنك. انا مسرور لهذه التطورات. وفقك الله.

توما— انتم اليوم مدعوون الى مشاركتي طعام الغداء.

تيطس— نحن مجموعة وانت فرد.

— سبقتكم في الدعوة الى مجالستي.

— هل هذا في حد نفسه يعطيك امتيازا؟

— لو سبقتموني لقبلت دعوتكم. سبقتكم الى المكان وسبقتكم في الدعوة. ان قبلتم دعوتي تمنّون علي، تجعلوني مدينا لكم. من دواعي افتخاري ان تتلطفوا علي.

فيلبس— الحل الوسط هو ان اتحمل انا النفقة ما دمتما مختلفين.

ماريا— ردُّ دعوة توما مستحيل. سبقنا فصرنا له مدينين.

توما— هل تتناولون قليلا من الخمر؟

صالومي— هل اثر عليك بخوميوس الى حد الاشتراط علينا أن نتناول فقط القليل من الخمر؟

فيلبس— يا صالومي! العصمة في الدخيل. توما يهتدي حديثا. تعصبه اقوى من تعصب الذين نشأوا فاترين مستهترين بالدين المتوارُث، اذ صار لديهم الدين مجموعة عوائد وطقوس ومظاهر فارغة وتعصب سخيف.

صالومي— هل عنيتني بحديثك؟

فيلبس— من كان في ظهره شوكة وخزته. انا اتكلم بوجه عام. هل من يحيا الله فيما بيننا؟ هل الانجيل هو قوام وجودنا وقوت حياتنا؟

تيطس— لا شك في اننا افسدنا جوهر الديانة. صارت جسدا بلا روح عندنا.

فيلبس— بل هيكلا عظميا منخوراً عفنا.

صالومي — فتشوا لنا عن حديث آخر أثناء الشرب والغداء.

فيلبس — ماذا؟

صالومي — فهمت قصدك. ما وخزتني الشوكة. فانا لست ملحدة، ولكنْ لكل شيءٍ لدي وقت. الوقت وقت نزهة. في البيت نكون في سجن. هل انتقل السجن الى هنا؟

توما — انت على مذهب القائلين بالمثل العامي: «ساعة لحبك، ساعة لربك». هذا التفريق خطير، لأني رأيت القائلين به لا يخصصون عمليا لربهم نصف ساعة في اليوم. وبعضهم لا يخصص له ربع ساعة. والكلام كلام معترضين على الانشغال بالتقوى، لا كلام مفتشين عن مرضاة الله.

ماريا — لا تقسوا على صالومي. فقلبها أبيض من لسانها، وان كانت لا تطالع الانجيل.

توما — اليها نسختي الصغيرة ريثما أحضر لها نسخة أكبر.

صالومي — انتَ احوج اليها الان مني.

— قبولك لها يُسعدني.

— اقبلها شاكرة لطفك. لا تكلف نفسك عناء شراء نسخة أكبر.

تيطس — ساشتري لها مثل هذه النسخة. فلا ترهق نفسك. اعرف المكتبة.

ونادى توما الخادم وطلب منه ان يحضر قليلا من الخمر لكل من ضيوفه بحسب اختياره. فنظر الخادم اليه شذراً بخفة ورشاقة، واستغرب هذا الزبون الذي يفرض على ضيوفه تقتيره وبخله. واوصاه توما بأن يقدم الطعام بعد ربع ساعة.

واستعفى يوحنا وسوسنّة من تناول الخمر وطلبا السماح لهما بالتجول في الغابة لربع ساعة. فانطلقا فيها يقطفان بعض الزهور البرية. وهبّ نسيم لطيف، ففاحت رائحة الصنوبر لطيفة منعشة، فاستنشقا الهواء النقي، وعادا يعدوان مبتهجين.

وتناول الباقون الخمر شاربين الانخاب. ثم دلف الجميع الى مائدة الطعام. ولم

تسلم الوجبة من انتقادات صالومي. فشرعت تنبش المآخذ على الطهي. وآثرت عليه طهي المنازل. فردت عليها ماريا:

— في منزلك تهيئين الوجبة لنفسك وفق ذوقك. في المطاعم والفنادق تُرَاعَى اذواق الزبائن، فيتم اختيار اوسط الامور، على قاعدة «خير الامور اوسطها».

صالومي — هل هذه الوجبة تشبه الوجبات التي أُهيؤها؟

فيلبس — متى نتذوق مطهياتك لنحكم في الأمر؟ لو عرف الطاهي أنك ستكونين اليوم ضيفه لطهى الطعام وفق ذوقك (ضحك الجميع).

— أما تعرف طهيي؟

— نسيته. أريد أن أتعرف عليه من جديد

— ابقَ ناسياً له.

— توما لا يعرفه.

— إن كان توما يريد أن يعرفه فأهلاً به. أما أنت فلا.

— هذا ليس بدعوة. وجّهي اليه الدعوة واذكرينا.

— قلت: أهلاً به.

— وبي؟

— وبك أيضاً على شرفه.

— يوحنا — وأنا أيضاً؟

سوسنة — وأنا كذلك؟

— وأنتما ووالدكما وخالكما. أهلاً بالجميع.

فيلبس — متى؟

— مساء الأحد القادم.

توما— أعتذر لأني أقضي العطلة في الدير.

صالومي— مساء الخميس التالي للخميس القادم.

— بكل سرور.

— هل ترغب في لون معين من الطعام؟

— لا أكترث باللون، وإنما أود الاقتصاد في الألوان والاعتدال في الكميات، لأني تخلّصت منذ زمن بعيد من البطنة. لذا أتمتع بصحة جيدة ورشاقة. ولكن لا أفرض عليك عدم مراعاة الباقين. فتفاهمي معهم.

فيلبس— نترك الأمر لك كيما تتصرفي بحرية وفق ذوقك، فنحكم بجودته أو عدمها.

— لا بأس.

وكان توما في نزاع داخلي بين واجب مسايرة ضيوفه (وبين) انشغاله بأموره الدينية. ومع هذا جعل محبة الناس تتغلب على رغباته الروحية واللاهوتية. وكان موقفه في الخيار عسيراً جداً. فقاسى ما قاسى لطيِ اضطرامِ فكره الديني قليلاً ريثما ينصرف الى ملاطفة الناس.

وبعد الفراغ من الطعام واحتساء القهوة قالت ماريا لتوما:

— الأفضل أن ندعك تنصرف الى مشاغلك الروحية بينما ننصرف نحن الى التنزه في المنطقة.

توما— بخوميوس علمني أن أرى المسيح فيكم. فأية هموم روحية أو لاهوتية تستطيع أن تنسيني بالتمام واجبي نحوكم؟

صالومي— «بالتمام»؟ يعني أنها تنسيك إيانا بعض الشيء؟

— لست روحاً صرفاً. فإنا إنسان مبيع تحت الخطيئة، لا تخدعني فقط الرغبات الأرضية بل الرغبات الروحية أيضاً.

ماريا— صارت صالومي تفهمك.

توما— يسرني جداً أن تفهمني وتتعاطف مع أفكاري

صالومي— اكتفي بهذه الحدود. فلا أستطيع أن أجاريك.

— ليس على الله من أمر عسير. لا تعلمين متى يقودك مزاحك ونقدك الى انقلاب جذري، تضحين بعده قمة في الجدّيات.

— كم ظنك بي حسن!

— لا أجاملك. هذا واقع معلوم. بولس انتقل من مضطهد للكنيسة الى بطلها. يوسف ونيقوديموس كانا تلميذين سريين ليسوع. في أوان الصلب صارا مثل يوحنا الانجيلي وحاملات الطيب التلميذين العلنيين، بينما تحول التلاميذ العلنيون لا الى تلاميذ سريين بل الى فارّين وجاحدين للمعلم.

صالومي— ما بالك تقلب عقلي؟ بقليل ستحملني على تبديل رأيي. إلا أني قوية الإرادة. لا أتأثر بالغير بسهولة.

— أتستعملين قوة إرادتك ضد الله؟ هل أنت قادرة على الصمود أمامه؟ من يقاوم الله؟

ماريا— ابليس.

صالومي— هل أنا من ابليس؟

توما— حاشاك! لا سمح الله! أرى فيك سمات ايجابية مهما بدوت سلبية.

صالومي— اسمعي يا ماريا!

توما— ولكن لا تفتخري بقوة إرادتك إلا إذا كانت مطيعة لله. قوة الإرادة هي الأداة الكبرى لتنفيذ تعاليم الانجيل. فالصالح من كنز قلبه الصالح، يُخرج الصالحات. والشرير، من كنز قلبه الشرير، يُخرج الطالحات. القلب واحد. بيد الصالح هو كنز الصلاح. بيد الشرير هو كنز الطلاح. وإرادتك كذلك. فكل الأعمال الصالحة تحتاج الى إرادة قوية. إن انقلبت إرادتك تم التحويل.

— إن بقيت هنا فستؤثر علي. قوموا ننطلق الى شاغور حمانا.

ماريا— لدينا بعد متسع من الوقت.

— حان الرحيل. وداعاً يا أستاذ توما! سنلتقي مساء الخميس. قوموا.

ماريا— لا تؤاخذنا. فإن صالومي قاطعة في أوامرها. متى صممت نفذت.

توما— الحاجة ماسة الى أمثالها.

صالومي— يبدو أن خيارك قد وقع علي. اختر سواي من الحاضرين.

ماريا— إن كان قد آثرك علينا فهل هذا ذنب تؤاخذينه عليه؟

— لا أؤاخذه. ولكنه ملحاح. وأنا لست جاهزة لتبني تفكيره.

توما— صبر الله على الانسان السنين. سألوذ بالصبر عليك.

صالومي— وداعاً.

وودعه الجميع وانطلقوا باتجاه حمانا عبر فالوغا. واقترح تيطس أن يتسلقوا الجبل الى عين الصحة. فوافق الجميع. خرجوا من السيارة وألقوا بأنظارهم الى فوق فنزولاً مستمتعين بمنظر شائق. فالسماء صافية الأديم وإن كان ضباب خفيف يتموج في الجبال العالية. وتدلّى النظر نزولاً فوق الجبال والأودية والصنوبر الى البحر غرباً في حقل بصري واسع ومنظر مهيب جليل. فرفعت ماريا صوتها وقالت:

— سبحان الله! ما هذه الروعة!

وكرر الجميع معها العبارة مدهوشين. وحال البرد دون إطالة الوقوف، فعادوا الى السيارة يتزحلقون حتى فالوغا فحمانا حيث احتسوا القهوة، وعادوا عبر بحمدون.

أما توما فاحتاج الى القيلولة فعاد الى الدير. ولما أفاق من نومه زار بخوميوس وأعلمه بأنه بات مرهقاً ومحتاجاً الى النزهة، فأذن له بذلك. وخرج في سيارته يجول بين الصنوبر. لما وصل أرصون تذكر أنها موطن البطريرك الياس. وكان قد سمع عنه الكثير الكثير. فسأل أحد المارة عن منزل أهله فدلّه عليه ورافقه. سأله:

— ماذا تريد من أهله؟

— سمعت الكثير الكثير عن رجل مفضال نظيف عفيف قضى نحبه في مرضاة الله، فأردت أن أزور البيت الذي أخرجه.

— أهلاً بك! إن أرومتك أصيلة، ففتشت عن أصيل تعودنا في هذه البلدة الوادعة أن نعيش لحظات معه لم نشعر فيها بأنه ذو منصب كبير. كان تواضعه أكبر من منصبه. كنا نشعر بأنه جعل العرش أرضاً. كان، وهو بطريرك، يعيش بيننا كصديق بل كأصغر الأصدقاء سناً. كان حمامة بيننا. لم تتبدل طباعه تجاهنا أبداً.

ودخلا سوية. وعرَّفه الدليل على ذوي البطريرك الطوباوي وعرفهم على قصده. فرحبوا به أجمل ترحيب. وطلب أن يصلي في الغرفة التي كان الطوباوي ينام فيها. فدخلها وصلّى بحرارة لكي يلهمه الله اهتداء صحيحاً الى يسوع.

وخرج مودّعاً بحفاوة. واتجه شطر بعبدات فبرمانا فبيت مري فرأس المتن غائصاً في قلب غابات الصنوبر حتى وصل دير الحرف. طالع قليلاً ونام باكراً.

وفي الصباح أفاق باكراً فصلى وسبّح وتلا فصولاً من العهد الجديد وحضر قداس الموعوظين. وقبل الظهر زار بخوميوس. فسأله هذا عن أحواله.

— تنزهت البارحة. وتجولت بين الصنوبر. وزرت بيت البطريرك الياس. ونمت باكراً، فزال عني الإرهاق. وأفقت باكراً أطالع في الأناجيل. وبعد قداس الموعوظين طالعت في رسائل بولس.

— ماذا عنّ لك من الأسئلة؟

— أسئلتي كثيرة. لكن لم أفهم المقصود لدى بولس بكلمة «ختم».

— إني أنصحك بإمعان النظر فيما تعلمت حتى الآن وتأجيل الباقي حتى الأسبوع القادم.

— أنا مستعد للسماع.

— النضوج لا يأتي من كثرة السماع بل من الصبر على تغلغل المسموعات شيئاً فشيئاً الى قرارة النفس والوجدان.

فأطاع توما وانصرف الى توطين نفسه على الصبر وكبح جماح الرغبات الروحية الملحاحة لئلا يُفْرِط فيفرِّط.

ولما عاد الى بيروت كان يستفيد من رؤية أي من الأهل والأصدقاء ليطرح معه أمور الله بانشراح صدر يبعث الدهشة في عقول السامعين الذين يعرفون إلحاده السابق.

وودّ كثير من الفضوليين أن يدخل معه في مكالمات وأحاديث. إلا أنه تخيّر الناس والأوقات لئلا يقصيه الناس عما هو فيه من سعي حثيث الى التعمّق والصمت الأصيل.

ولكنه كان يتصرف بمحبة. فإن آنس في أحدهم رغبة في الاستطلاع والاستفادة فتح له صدره. وإن عرف فيه فضولياً خالصاً لا تتغلغل كلمة الله الى صدره جاراه قليلاً وتملّص من فضولياته المرهقة للروح والأعصاب.

واستعد للسفر يوم السبت فلم يستطع الذهاب صباحاً، فسافر بعد العصر. فوصل دير الحرف منشرح الصدر. فزار بخوميوس فأوصاه بالعودة صباحاً.

الفصل السابع عشر

وزار بخوميوس وطرح عليه مسألة الختم فأجابه:

— الآباء القديسون وافونا بالشرح الشافي.

— ما هو؟

— كتابة الختم هي يسوع. حينما يختمنا الروح القدس يطبع فينا يسوع. ويسوع هو صورة الآب. الروح القدس طبع فينا صورة الآب أي يسوع، فامتلكنا الثالوث القدوس، صار ملكاً لنا، وإن كنا خلائقه.

— ما يعني، إذن، اعتمادنا باسم الثالوث القدوس؟

— أجدت في طرح السؤال.

يتم الزواج بموجب سند وتدوين العروس على اسم عريسها. ومذ ذاك تصبح قنية كريمة لزوجها، وتنتقل حقوق أبيها عليها الى عريسها الذي له عليها حق الطاعة والإكرام بينما عليه حق المحبة والافتداء بمهجته. «تصير على خانته».

— جيد جداً.

— اصبر. تتم المعمودية باسم الثالوث. وفي الكتاب المقدس، الاسم يدل على شخص الله. فشخص الله نفسه ماثل في معموديتك. اعتمادك باسم الآب والابن والروح القدس يعني انسلاخك عن ذاتك وماضيك وأهلك وعالمك ليختصَّ بك الثالوث القدوس. تصبح مكرسا له. يمتنع عليك الإرتباط بسواه كما أن الزوجة لا تنفك عن زوجها لتصير لآخر ما دام حياً. بختمه تصير له ويصير لك سيسمّي اسمه عليك لتصير خاصّاً به.

— هذا يعني أن يسوع سيمتلكني.

— بولس قال إنَّ يسوع قد اشترانا بثمن غال هو دمه الكريم.

— هل يشتري المعمود كعبد؟

— حاشا! الثالوث القدوس يضمّنا بالمعمودية الى ملكوته. يصبح ملكاً علينا. نصبح رعيته المختارة، ولكن رعية أبناء لا رعية عبيد. يسوع هو الرأس ونحن أعضاء جسد يسوع. ومتى تم إخضاع الباطل نهائياً، وتحرر كل شيء، وصار خالصاً ليسوع، فسيقدم يسوع جسده الكامل أي نحن للآب في طاعة مطلقة للآب، للمجد الأبدي على ما نفهم من بولس. الشر الحاضر يقاوم طاعة الكل وخضوعهم في يسوع لله.

— إذا كان الله ملكي وأنا عضو في مملكته بالمعمودية فهو مسؤول عني إذن؟

— وأنا مطالب بالطاعة التامة والولاء التام الذي هو أخو الوفاء.

— المعمودية هي عرس إذن؟

— واحتفالنا بها هو احتفال عرس. يلبس المعمود ثوباً أبيض مشرقاً كعروس بتول طاهرة لا عيب فيها ولا غضن، بل مشرقاً كثياب يسوع أثناء التجلي.

— هي عرس وميلاد وقيامة.. و...؟

— هي كل شيء. هي نزول السماء الى الأرض وصعود الأرض الى السماء. ألم أقل لك إننا نتألّه؟ صار الإله إنساناً ليصير الناس آلهة، ليصير أبناء الانسان أبناء الله. المعمودية هي إجراء هذا السر عليك. سنصيّرك ابناً لله في جرن المعمودية، فتنال مجد سر التجسد الإلهي، وتترك ثوبَ البلى لتلبس ثوب عدم الموت، وثوب الرق والعبودية لتلبس الحلة الملوكية الأولى.

— كنا في يسوع. الآن أوصلتني الى الثالوث. وأين النهاية؟

— لا نهاية لهذا السر. ما دام يرتبط ببدء الدنيا، فهو ينقلنا الى ما قبل آدم والى عالم السرمدية، لنشارك في أبدية الثالوث والخلود، فنلبس ثوبَ عدم البلى.

— لماذا يقول دستور الايمان إن المعمودية واحدة؟

— الولادة لا تتكرر. الخطايا التي نرتكبها بعد المعمودية ضعف. إنكار الايمان والعودة الى الإلحاد والكفر ضعف. جسد يسوع فيك سيبقى جسداً. إلا أن كفرك أو رذائلك تجمد نموه. بالتوبة والدموع والعمل الصالح تطلق له العنان.

— وإن عاد الملحد بعد إيمان الى إيمانه؟

— تمسحه الكنيسة بالميرون المقدس لتجديد قواه الروحية التي فقدها.

— ما زالت لديّ تساؤلات. سأطالع وأعود اليك بعد الظهر.

— اذهب بسلام.

عاد الى الدير. ولكنه يشعر بالحاجة الى الاعتدال، فقرر الإخلاد الى الراحة قبل العودة الى المطالعة. وبقيت همومه ثابتة. وانطلق في سيارته الى عين الصحة يحيا فترة كأنه في برج شاهق يطل على التلال والأودية والغابات حتى البحر الواسع. فسبّح الله وحمده في قلبه. وتمتم بعض الترانيم ونظم بعض التسابيح والأناشيد. وتناول

الطعام بشكر. وشاء أن يعود الى الدير للقيلولة فلم يستطع حراكاً لأن المناظر الساحرة سمّرت رجليه في المكان، وحرمته عادة إغماض العينين للتأمل والصلاة.

إلا أنه عوَّض عن ذلك باستنشاق الهواء العليل والترديد مع كل استنشاقة بالتناوب: «المجد لك يا رب»، «ما أعظم أعمالك، يا ربي، كلها بحكمة صنعت»، «اللهم ارحمني واغفر لي»، «اللهم التقطني أنا الهالك»، «اللهم انتشلني أنا الغارق».

وحوالي الخامسة عاد الى بخوميوس وقد زال الإرهاق الخفيف، وارتخت التوترات الناتجة عنه.

وكان بخوميوس خلال هذه الفترة قد راجع حساباته، ولاحظ أن توما عالم وفيلسوف يطرح المسائل العقائدية والمصيرية، ولا يلتفت الى الوصايا الإلهية. فقرر أن يصرفه اليوم الى وصايا الله ليتسلّح بالأخلاق الحميدة. لذا بادره بالقول:

أجِّل المسائل العقائدية الى الاسبوع القادم، ودعنا الآن نطرح الأمور المتعلقة بحياتنا الداخلية التي هي الأساس الذي من ضمنه يتجلّى يسوع في حياتنا.

— ماذا تعني؟

— كل ما علمته من عقائد لا يجديك نفعاً إن لم تتجسد وصايا الله في حياتك وسلوكك. حتى المعمودية لا تفعل فيك فعلها الأصيل إن لم يتجلَّ المسيح في أخلاقك. متى استقامت أخلاقك، تطهرت نفسك، وتجلّى قلبك، وأضاء فيك نور الرب.

— سمعاً وطاعة!

— أنت ابن هذا الشرق. ومشاكلك الأخلاقية شرقية؛ وإن كان مثلها موجوداً في الدنيا كلها؛ ولكن ليس بالبروز المعهود لدينا.

— هاتِ!

— تربيتنا لأطفالنا فاسدة.

— لماذا؟

— تفيض عواطفنا نحو المولود جديداً، فنفقد الاعتدال في تنظيم طعامه وشرابه وكسوته ونومه وسائر حاجاته. ولا نهتم بتوقيت ذلك. لهذا كله أصول يترعرع معها الجسم نشيطاً رشيقاً، وتكتسب النفس عادات وأصولاً في السلوك تصلح أساساً لنمو نفسي سليم.

— وعندنا؟

— ينشأ الطفل مرتبطاً بجهازه الهضمي من أعلاه الى أسفله بصور تختلف من انسان الى آخر. فإما أن ينشأ شرهاً طماعا لا يعرف حداً للاعتدال، مستبيحاً كل شيء في سبيل مصلحته، أنانياً كبيراً مهما تظاهر باللطف. وإما أن ينشأ بخيلاً مقتراً يعبد المال بدلاً من الطعام، يطمع فيه مليون ضعف من شرهه السالف. وأما وأما و... فالألوان تتعدد بتعدد أفراد البشر.

— والنتيجة؟

— إن كررته في معامل التكرير كان خلاصة خلاصات الأنانية.

— ولكن الناس عندنا يجاملون اجتماعياً؟

— ما دمنا ندلّل الطفل، فقد صار لا يستطيع أن يعيش إلا وعيناه شاخصتان الى الناس ليكتسب تدليلهم ويستمتع بمكالمتهم. لدينا جوع قتال الى مدائح الناس وتبجيلهم وحسن رأيهم فينا. ولا نستطيع العيش في خلوة طويلة، لأن البعد عن الناس صار يشعرنا بفراغ داخلي فتاك، فنهرب منها إليهم.

— طلاقة لساننا مرتبطة، اذن، بفراغنا الداخلي؟

— هذا عين الصواب. نفتش بجهد جهيد عن إنسان نفاوضه لنتخلص من الضجر، والفراغ، والشعور بالضيق الخانق الناتج عن الفراغ والمُلَال.

— ولكن هل هذه النزعة الاجتماعية سليمة؟

— لا! توجُهنا الى الغير لا يقوم على محبة حقيقية. تربيتنا أنشأتنا أنانيين من جهة وشاخصين الى الغير من جهة أخرى لننعم بعواطفه.

— ما موقفنا من عواطف هذا الغير؟

— غالباً نميل اليه لأنه يسد فراغنا. وإنما ننشأ بصَريين لا نرى إلا بأعيننا ولا نعيش إلا بأعيننا وماديتنا. نبقى غير قابلين للرجوع الى داخلنا، لنغطس في العمق بدلاً من الطفو على السطح.

— وماذا بعد؟

— هذه التربية الأنانية التدليلية تنفخ كبرياءنا وعجبنا بذاتنا وتُرسّخ حاجتنا الى مدائح الناس، فضلاً عن تأسيس شعور بالنقص يتصارع مع ميل قاطع نحو التعالي. والكبرياء هي خطيئة الشيطان وآدم وحواء. هي أولى الخطايا. وقد شنع عليها كثيراً الآباء القديسون. هي الخطيئة الخاصة بالشيطان.

— لا أستغرب عبادة الناس للمال إذن؟

— في هذه البلاد، في العهد الوثني، أقام الناس المال إلهاً، وصنعوا له صنماً أسموه «ممون»، نهى يسوع عن عبادته. في الأصل اليوناني للانجيل، ورد اسمه «ممون» حيث نهى يسوع عن عبادة المال. من أجل المال يلتي الناس الى الساحة بكل الشراسة التي عرفتها البشرية في حروب هذا العصر، ولكن بدون سلاح ناري إلا في ظروف معينة.

— من أجل المال يغامرون.

— يغامرون ويقامرون وينتحرون ويستبيحون الانجيل والضمير والأخلاق وكل حرام، حتى يضحي العدل والمساواة اسماً لغير مسمى، ويضحي التعفف والنزاهة مضغة الأفواه وهزؤاً وسخرية. ويضحي الحرام حلالاً، لأن الأنانية تستبيح الحرام.

— ولكن يبقى الناس يجاملون بعضهم بعضاً الى حد كبير.

— ما دمنا نعبد المال والمكاسب، انتهازيين نفعيين، فاللطف أداة المحتالين. من هو المحتال؟ هو الذي يغوي الناس في سبيل سلبهم أموالهم. السفاح يأخذ المال عنوة. واللص يأخذها خفية. أما المحتال فيأخذها بالمكر والخدعة والحيلة. وهذه الثلاثة ظاهرها إفراط في اللطف وباطنها دهاء ومكر ونفاق.

— ما قصة هذا التبطين إذن؟

— نحن شعب تاجر النفعية مالياً أو نفسياً هي قانون الحياة ومحركها. فيختلط اللطف بالأهداف السرية. والهجمة على المال والمنافع هجوم. والهجوم عدوان. ولكنه هنا عدوان مبطَّن. والغضب جزء من عدوانيتنا.

— تعقَّد البحث وتشعَّب.

— لذا من الأفضل أن نكتفي بهذا القدر ونؤجل الباقي الى ما بعد اعتمادك، فأحدثك في المرحلة اللاحقة عن الروح القدس وعمله.

— ولكن هل تسمح لي بطرح سؤال على ضوء شروحك؟

— اسأل.

— ألاحظ تناقضاً واسعاً جداً في عواطف الناس عندنا لدرجة لا يعرف معها الانسان، الصديق من العدو هل هذا نتيجة لتركيبنا المذكور؟

— بالأحرى تركيبنا الذي تراه هو نتيجة للتناقض. التناقض أعمق من كل ما تراه على السطح. أضف اليه عوامل أخرى.

— أوضح لي بأجلى بيان.

— في الأساس، بعد الخطيئة تشقَّق بيت المحبة، فدخلت الينا العداوة. وبدلاً من محبة الله صرنا نحب أنفسنا حتى صارت ذاتنا محور وجودنا. الكبرياء أولى الخطايا. ولكن قايين قتل أخاه. فإذا بالعداء والحسد قديمان أيضاً.

— ما زال الأمر غامضاً علي.

— وسيبقى غامضاً. دع تفاصيل هذه الأمور الى مرحلة ما بعد معموديتك.

— ولكن أود أن أولِّفَ لنفسي فكرة عن الموضوع.

— المحبة والعداء قوتان تتصارعان فينا شعورياً ولاشعورياً. وما من إنسان، مهما توحش، يخلو من استعداد للتأثر بالعواطف ولاستيقاظها. ما من محبة خالصة. ولا من عداء خالص على مدى العمر تمتزج المحبة والعداء في النعمة الإلهية بنسب قد

تتبدل كل ثانية أحياناً. الصوفيون وحدهم بفعل النعمة الإلهية استنفدوا الطاقة العدائية وقلبوها الى قوة في المحبة، وبطولة في الحياة، واستبسال في الاستشهاد كالشهداء أندادهم.

— على ضوء ذلك أرى أن بنيتنا من أسوإ أصناف النماذج.

— طبعاً. لذلك يندر الوفاء عندنا، لدرجة أضحى معها الغدر بالصديق مذهباً، والغش في المعاملات التجارية والمبادلات قانوناً، والنفاق مذهباً، والكذب فضيلة. الطفل عندنا يتعلم الكذب منذ نعومة أظفاره، فيترعرع مرتاباً في كلام أهله وسلوكهم. وهذا تناقض جديد في حياته. بدأ واثقاً بهم ثقة عمياء فإذا به يرتاب.

— الثقة مفقودة بين الناس.

— هذا أثر من آثار هذا الوضع النفسي الخطير. أما يقول المثل عندنا: «إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب»؟ هذا هو رأي كل واحد منا في الآخرين. والذين يخادعونك يناورون لكي يُنيموك على حرير الثقة، فيمكروا بك. فلو كانت الثقة هي أساس التعامل لخلا المجتمع من المراوغة التي هي قانون عام عندنا.

— أنت تنصحني، إذن، يتجنب الألسنة «المعسولة» والقوالب الناعمة؟

— هذه أخطر تركيبات التناقض. الألسنة «المعسولة» تغطّي بالحلاوة سماً زعافاً. والقوالب الناعمة تخفي لسعات أفتك من لدغات الأفعى الرقطاء. سم الأصلال يختني تحت الجلود الناعمة. لا تدري متى تلسعك، ومتى تحسن اليك. أظافرها تختني تحت القفاز على أسلوب القطط: الملمس ناعم، ولكن الأظافر جارحة. ووفاؤها غير مضمون، إذ تتلون مثل أبي براقش وبخاصة في ظروف الشدة أو الحسم أو الإرتباك.

— ماذا تنصحني؟

— ليكن الصدق نسيج وجودك كله، ولتكن الصراحة ديانتك. الصراحة ضد التبطين. الصدق ضد التزييف. الوفاء ضد الغدر. ما دام الوفاء للأحبة هو جوهر قوامك فالعداوة تخرج الى خارج ملفوظة كالنواة. إياك والكذب والرثاء. كن

مع الحق أسداً غضنفر ومع الباطل جباناً ، مع الخير بطلاً ومع الشر مغلول اليدين ورعديداً .

— الغدر ابن التناقض اذن؟

— عشت ، يا حبيب القلب ! لولا التناقض لما انقلب الصديق الى عدو غدار . هذا التناقض تفهمه جيداً إذا حلَّلت مقابله الفرنجي Ambivalence فهو يفسّر خبث الألسنة عندنا التي تمتدح الانسان في وجهه وتلسعه في غيابه .

— قد يكون أكثر من ٩٩٪ من مجتمعنا مصابون بأدواء الإرتياب والاغتياب والطعن من الظهر . كل أحاديث مجتمعنا هي طعن في الآخرين وأعراضهم وشرفهم . فنتهم جميع الناس ولا نستثني أحداً تقريباً .

— مجتمعنا مريض بداء اتهام الآخرين ، حتى لَيَشعر المرءُ أن المحبة الحقيقية مفقودة ، وأن نظافة الأخلاق مستحيلة ، وأن البغضاء والحسد والغيرة نيران محرقة تقدح في العيون . مجتمعنا متشقق على نفسه ، معدوم الوحدة .

— ما الدواء؟

— أهتم بنفسك أولاً لئلا تخسرها بدون أن تربح أحداً . امض بسلام فقد طفح الكيل فوق حاجتك وطاقتك .

— الى السبت القادم ، اذن ، ولا تهملني في صلواتك .

— فليجعلك الرب الإله نوراً .

— آمين ! بصلواتك يا أبتِ !

— بصلوات القديسين . آمين !

— هل تسمح لي بملاحظة واحدة فقط ؟

— هاتِ !

— أين جسد المسيح الواحد الملتحم الذي تحدثنا عنه من جسم مجتمعنا

المتفسخ؟ هل يجتمع ٣ في مجلس إلا اختلفوا وتشاكسوا وتشاتموا، وكان كل منهم متنافراً مع غيره؟

— أجبت بنفسك على سؤالك. أين الثرى من الثريا؟ واحسرتاه!

عاد توما الى غرفته كئيباً لهذه الاكتشافات المؤلمة. وأخذ يخوض في أعماقه يحلل نفسه ومجتمعه ليكشف أن كبرياء الانسان وعجرفته وعُجبه بنفسه واعتداده بذاته باطل الأباطيل، وقبض الريح، وتغطية فاشلة لرداءته وشرور قلبه وخبث طويَّته. وشيئاً فشيئاً سقطت الأقنعة عن وجهه، وشرع يرى الحقيقة سافرة. فيئس من نفسه، وشك في أن تستطيع المعمودية إنقاذه من فساد طينته، وانطوائه على أنانيته مثل كل مواطنيه الذين تتلبس حتى غيرتهم ثوب الأثرة.

ورفع عينيه من الأرض الى فوق، فوجد أمامه ايقونة القيامة معلقة على الجدار وحاملة عبارة:

«المسيح قام من بين الأموات، ووطىء الموت بالموت، ووهب الحياة للذين في القبور».

فقال لتوه: «المسيح قام»، فأين غلبتك يا جحيم؟» ورأى على الطاولة كراسة تحوي خدمة الفصح المجيد، فتناولها وأكبَّ على مطالعتها وإنشاد ترانيمها، فانقشعت الغمامة السوداء العابرة، وانطلق يرنم بصوت خافت: «المسيح قام...»

وأدرك لحينه أن سواد القلب محتاج الى التبييض بالتوبة، والى الايمان بأن الذي قام من بين الأموات هو وحده يطهِّر القلب، ويفتح أبواب الحياة الحقة والخلود الصحيح.

وانهمر الدمع من عينيه مدراراً، فشكر الله الذي أدار بصره من اليأس الجحيمي الى قيامة المسيح المضيئة. فقضى ليله مرتاحاً تعتمله مشاعر التوبة والرجوع الصادق الى الله. وعاد في الصباح الى بيروت أعمق إيماناً بأن الرب سيقهر كل ما لديه من يأس وظلام، وما فيه من آثام وتمرّغات.

وإتى البيت أولاً فاستقبله الأهل فرحين. فسره أن تصبح نعماء أكثر ايجابية نحوه ، وأن يصبح أباه أكثر تفهماً لاهتدائه.

إلا أن أباه بقي مفتقراً الى الحماس الذي يعوز من كان في سنه بدون التروض باكراً على التقوى. أسف توما في قلبه ، وصلّى خفية لكي يساعده الله يوماً على قهر هذه الصعوبة. ولم يكن يجد بعد في نفسه كل القوة اللازمة لبعث التغيير الكبير من حوله. فعزا ذلك الى كونه لم ينل بعد المعمودية والروح القدس ، لتنطلق البشارة من فمه كسهام نارية تخترق الحجب التي أسدلها الشيطان من حول الناس. فأصابه ذهول من فظاعة حاله الخاطئة ، ومن تنازعه بين عشرات العوامل التي يشده كل منها في اتجاه معاكس للعوامل الأخرى ، ومن سهولة الشر وعسر الخير ، ومن هول المعركة التي أخذت تدور رحاها في نفسه بين الله الذي يدعوه والخير الذي يستهويه من جهة ، وبين قوى الشر الشرسة التي تثور ثورة هوجاء كلما خطا المرء خطوة نحو الله في الخير.

الفصل الثامن عشر

مساء الاثنين تلقّى توما هاتفاً من تيطس يجدد فيه الدعوة الى العشاء مساء الخميس. فشكره واشترط عليه أن يكون شيء من الجد طابع الوليمة. فأجابه :

— ابحث هذا يوم الخميس مع صالومي. فهي صاحبة الدعوة أصْلاً.

ولكن صالومي تحب المزاح ، فدعت ابن عمها شادي الى العشاء. ويوم الخميس أعدت أطباق الطعام ، بشيء من القناعة ، نزولاً عند رغبة تيطس ، مجاملة لتمنيات توما.

وحضر توما وفيلبس وشادي وماريا حوالي الساعة الثامنة مساء ، فاستقبلتهم صالومي بالترحاب المعتاد ، وأدخلهم تيطس الى قاعة الاستقبال ، فاتخذ كل واحد منهم مقعداً.

وكانت صالومي قد زينت القاعة بالورود والألوان الزاهية. وبعد المجاملات التقليدية والعواطف الجياشة كالمعتاد، ولو كان فيها كثير من النفاق، صوّبت صالومي نظرها الى توما وقالت له:

— الآن سنشرب ونأكل ونمرح. فأهلاً وسهلاً بك. ولكن أتركْ لنا الانجيل موقتاً في بيتك.

ودخل والدها مرقس وأمها اليصابات بينما تنطق بهذا، فانتهرها والدها قبل البدء بالسلام ونظرت أمها اليها شذراً.

وبعد التحية والسلام والترحاب اتخذا لهما مقعداً.

ودارت الأحاديث، كالعادة، عن شؤون الساعة وشؤون الناس، فقاطعت صالومي:

— الحلول الوسط تبقى سيدة الحلول. ما نوع الموسيقى التي تودون سماعها؟ توما يستبعد ما يعتقده تافهاً منها وخاصاً بالمراهقين والمراهقات. وأنا أستبعد ما هو شديد على السمع مثل أم كلثوم وشيوخ الغناء القدامى. فما رأيكم باللطيف من الموسيقى الكلاسيكية؟

ماريا— اختار موتسارت.

شادي— لماذا هذا التقييد؟ فلتكن تشكيلة من كل الأنواع فيها المطرب وفيها الجدي.

توما— لا أمانع في الاستماع الى موتسارت. ولكن هل يتعارض هذا مع سماع شيء من ترانيم القيامة؟ فقد أحضرت هذا الشريط.

صالومي— لا يمكنك إلا أن تخرج على شروطي.

توما— تسجيل تم في دير مار يعقوب.

شادي— أود سماعه.

صالومي— قبل لحظة طلبت المطربات.

شادي — المطربات والجديات .

صالومي — دعونا نبدأ بموتسارت .

شادي — لا أمانع .

ماري — لا، بالقياميات .

اليصابات — القياميات .

مرقس — القياميات .

شادي — القياميات .

صالومي — يا شادي ! الزم خطاً واحداً .

شادي — قالوا : «القياميات» فوافقت .

صالومي — ليس لك من خط واضح .

شادي — كلي ثبات .

صالومي — ليمنحك الله ذلك .

وضحكت في قلبها ، وتناولت الشريط من توما ، وأودعته المسجلة .

أما توما فأخذ يراقب شادي إذ لفت نظره التزييف في حركاته وأقواله .

وإذا بجرس المنزل يدق . ففتحت صالومي الباب فإذا بابن عمها روبير أستاذ الحقوق الإدارية يدخل آتياً لزيارتهم . فاستقبلته بالترحاب ، وأدخلته ، فرحّب به الحضور ، واتخذ مقعداً بينهم . فدعته صالومي للعشاء .

وأصغى الحاضرون الى ترانيم القيامة ريثما تنتهي صالومي من إعداد المائدة إعداداً تاماً . وما ان انتهى الوجه الأول حتى دعت الجميع الى اتخاذ مقاعدهم حول الطاولة .

وطلب توما الى فيلبس أن يقول صلاة على الطعام ، فأحال الأمر على توما ، فقالت صالومي لتوما :

— يبدو أن المسألة معك لن تقف عند حد.

قال توما : لم أعتمد بعد. أنتم قد اعتمدتم.

فانبرى روبير، فتلا الصلاة. فقالت له صالومي :

— كنا محاصرين بواحد، فصرتما اثنان.

— ما الأمر؟

توما يستعد للمعمودية. وصار الدين شغله الشاغل لدرجة الهوس. وليس الناس جميعاً مستعدين لمجاراته في حصر همهم كله في الأمور الدينية. ولا يقبل التنويع إلا مكرهاً.

توما— لا تنسي أَني استاذ في الجامعة أيضاً.

شادي— لاحظت ذلك عليك يا أستاذ. فأنا أؤيد صالومي.

روبير— هل من العار أن يحصر المرء همه بالله؟

صالومي— لا بد من التنويع، وإلا صار الأمر فكرة ثابتة.

روبير— بموجب ذلك كل مهنة في الدنيا تصبح فكرة ثابتة، لأن كل إنسان يكرر يومياً أعمال مهنته بشكل شبه روتيني.

صالومي— الانسان محتاج الى مهنته ليأكل ويشرب، الدين لا يُطعم ويُسقي.

— من قال لك إنه كذلك؟

— صلِّ لنحصل على الخبز؟

— هل قرأت ما قاله الشيطان ليسوع لما جربه؟

وانصرف الحاضرون الى تناول الطعام. ثم نطق شادي :

— رأيك مصيب، يا روبير.

ضحك توما وقال :

— منذ لحظات أيدت صالومي.

فردّ عليه شادي:

— أنا إنسان أقول الحق وأعمل بوحي ضميري.

مرقس— ولكنك تتلون كثيراً. اثبت على موقف معين.

شادي— الثبات ضد الحرية. والضمير يتصرف وفق المواقف المستجدة.

توما— ويصبح الضمير ألعوبة الأقدار والمجاملات؟؟؟

شادي— لا! لا! أنا لست متحجراً.

روبير— (وهو يضحك في قلبه) بل متطوراً.

— هذه هي الحقيقة.

ووضعت صالومي اسطوانة لموتسارت، فاستمع اليها الجميع صامتين، فقطعت بذلك جدلاً يزعجها. إلا أن روبير عاد الى الساحة يقول:

— صالومي! إن الجسد يموت إن حرمناه الطعام والشراب فوق حد معين لا يمكن تجاوزه. ويعود الى أصله، الى التراب في قبر موحش. أما الروح فتذهب الى عذاب أبدي إن حرمناها خبزها السماوي.

— أيدعوك هذا الى القول إن الدين مهنة للأكل والشرب؟

— طبعاً. إنه مهنة للطعام والشراب الروحيين. هو مهنة الروح.

— لا توجد مهنة تسمى «المهنة الروحية».

— القضاء الفرنسي، بعد فصل الدين عن الدولة وصدور تشريعات علمنة الدولة، أصدر قراراً علّق عليه زعيم علماء الحقوق الفرنسيين هريو، فقال إن الدين مهنة المؤمن مثلما الصحافة هي مهنة الصحافي والبقالية مهنة البقال. وكان ذلك في العام ١٩٠٨. وما زال الفقه والقضاء الفرنسيان يكرران ذلك حتى اليوم.

توما— هذا أمر هام. أفي فرنسا يقول الحقوقيون بهذا؟

— ونقله عنهم شعوب أخرى. الدين مهنة. وهي أهم من المهنة العادية بقدر ما الفردوس أعظم من الجحيم، والبقاء أخلد من الفناء.

توما— أما تعتقد إن الله قد أفاض علي حنانه ومراحمه لما أتاح لي أن أعرف الانجيل ويسوع، لأضمَّ ايماني بيسوع الى استاذيتي في الجامعة؟

— هذا افتقاد الرب الإله. هنيئاً، هنيئاً! بارك الله ذلك.

صالومي— يبدو أنكما قد اتفقتما علي.

شادي— هذه هي الحقيقة بعينها.

صالومي— ماذا تنتظر لتنطلق فوراً الى الدير؟

— أنا جاهز.

— قم لأنقلك بسيارتي.

— الأمر يحتاج الى تفكير ورويّة.

— كم يدوم ذلك؟

— لست أدري.

— أشهراً أم سنة، أم دهراً؟

— تحاصرينني وأنا غير مستعد بعد للبتّ في ذلك. فقد أفصله في أسبوع أو قد أبتّ فيه في شهر.

— الأفضل أن تؤجله الى الجيل الآتي.

— أتسخرين مني؟ أنا قادر على البت فيه فورا.

— تفضل.

— لا أشاء

— ولن تشاء قبل فوات الاوان

روبير— صالومي ! خرجت عن سير الحديث.

— دعنا ننوع لينزل الطعام في الجوف لذيذا، فتتمثّله المعدة.

— هل اقتنعت بأن الدين مهنة؟

— هو مهنة لرجال الدين العاطلين عن الاعمال العادية القائمين بفروض الصلاة والعبادة.

— من قال لك ان الدين مهنتهم أكثر مما هو مهنتك؟ منذ حين ذكرت لك الروتين.

— هل الدين روتين؟

— نعم! هو روتين لدى المكررين. ورجال الدين ينزلقون بالتكرار نحو الروتين، فيفقد الدين توقّده الوهّاج. اما أنت فاقلّ منهم تعرضا لخطر الروتين.

— كيف؟

— ان اضحى الدين مهنتك وجذبتك مهنتك الدنيويّة كانت عمليات الجذب سبباً للسعات ضمير حرّ تدعوك للالتجاء الى الله بحرارة ضد انغماسك في الدنيا.

شادي— لله در هذا الكلام الذهبي!

صالومي— وان انجرف المرء وراء مهنته الارضية وما احترف الدين الى جانبها؟

روبير— جمّد مهنته الروحيّة. أماترين تفاهة رجال الدين الذين لا يُذكون الموهبة؟

صالومي— ولكن رجال الدين نالوا موهبة خاصة بحلول الروح القدس؟

— انا لا اخترع ولا اجدد ولا اجدف. بولس الرسول نفسه اوصى باذكاء الموهبة الممنوحة بوضع اليد.

— اذنْ: النعمة لا تعمل تلقائيا؟

— النعمة تدعم ارادتنا. رجل الدين الذي يطمر الموهبة يتعرض لقصاص

صاحب الوزنة ويُعاقب أكثر من سواه ، لأنه خان العهد الذي قطعه ، عفوا حين قبول النعمة ، بان يكون عبدا للجميع ليربح الجميع للمسيح.

— اذنْ : الوظيفة لا تمنح بحد ذاتها امتيازا خاصا في القداسة.

— كل شيئ مرتبط بالجهد الشخصي الذي تنسكب عليه شآبيب النعمة ، اثناء القيام به ، على قدر موهبة المسيح. الكاهن يقدس نفسه والآخرين. ان اهمل نفسه اطاح بنفسه وبالآخرين وادّى لله حسابا عن نفسه وعن الآخرين. ولذلك هرب كثير من الآباء القديسون من الرسامات الكهنوتية. وبعضهم امتنع عن الممارسة بعد رسامته, سر الكهنوت سر عظيم. والذي يخونه هو يهوذا الاسخريوطي الجديد.

صالومي — فلنعد الى السياق : هذا بالتجميد ورجل الدين بالروتين ، فمن هو الممتهن والمحترف يا عزيز؟ الكل ، اذنْ ، في ضلال مبين.

— هذه انحرافات منحرفين. اما الأصيل فهو الأصيل ابن الأصيل.

— في خيال المتوهمين.

— والدين مثالية وارتفاع فوق الواقع المر الأليم.

— ويبقى الانسان هو الانسان في ضياع مبين.

— وانا اعرف ضعفه وسقمه ولكني معتصم بالله رب العالمين.

شادي — الانسان هو الانسان.

نظرت اليه صالومي شذرا وقالت له :

— هل آمنت ان الدين لا يكون مهنة؟

— نعم!

— اثبت على هذا الاعتقاد ولو لثوان معدودات.

— أنا ثابت ومقتنع.

ضحك الجميع بابتسامة لطيفة. فقال روبير :

— الدين مهنة روحية. والمهنة الروحية تقوم على الوخز الدائم. في حياة العلماني مئات مئات الاسباب لتبكيت الضمير وتقريعه.

توما— النساك والرهبان يتقنون هذا الفن.

روبير— نعم!

صالومي— هوذا قد صرتم ثلاثة. ابنوا لانفسكم صوامع او ديراً. وان شئتم نقلتكم صباح غد الى الناسك بخوميوس صديق توما.

روبير— نستطيع ان نكون بخوميوس ونحن في العالم.

صالومي— لا اصدق. هل انت مستعد يا شادي؟

شادي— انا مستعد!

توما— المهم ان يكون يسوع ملء وجود الانسان، سواء كان هنا او في الدير. والا فالكل باطل وقبض الريح.

روبير— بولس الرسول علّمنا أن لكل واحد دعوته. هو في صلب دعوته. إن كان جسد يسوع وبلغ ملء القامة وصار ممتهناً الحياة الروحية.

صالومي— يا روبير! اتيتنا «زيتا على زيتون». كنت قد اشترطت على توما الوقوف عند حد معقول، فأتيت انت تقتحم كل الحدود وتقيم الحجة على ان الدين مهنة. انك توشك ان تخرجني من أطواري.

— اخرجي بحق.

— لا أصلح لما تريد. فانا احب الدنيا دون ان اعادي الله.

توما— القلب لا يسع يسوع والعالم. وسع قلبي العالم طويلا. ولما اهتديت الى يسوع خلعت عني نير العالم واستعددت لحمل نير يسوع.

صالومي— وانا سأحملكم تناول هذا الطبق من لحم الدجاج. فكلوا هنيئا، واشربوا مريئا، واستمتعوا بسماع موتسارت، فان دسامة الحديث ستعيق الهضم، الا اذا سهّله موتسارت.

شادي — لا ! هذا يحتاج الى طقطوقة من الطقاطيق البلدية .

صالومي — اما لك من قرار واستقرار ؟ كيف تنتقل فورا من جديّة الدين والطرح الرهباني الى الطقاطيق ؟

— أنت ستجعلينني امزق ثيابي . انا اعرف كثيرين يناوبون الاشرطة الدينية والاشرطة الدنيوية السخيفة التافهة .

— ان كانوا هم بلا ذوق ، أصرت أنت فورا مثلهم بلا ذوق ؟

وقهقه الحاضرون ، فانقلبت رؤوسهم الى خلف من الضحك .

ونظر توما الى شادي نظرة اشفاق ، فرثا لهذا الانسان الذي لا يستقر على حال . وقال في نفسه : كم في مجتمعنا من المزيفين الضعفاء الشخصية من امثاله التافهين وكم فيه من المزيفين الدهاة المؤذين الخبثاء !

حقا ان التزييف طامة كبرى وعاهة مجتمعنا البائس .

واستمع الجميع الى موتسارت . وأثناء تقديم الحلويات والفاكهة طالب توما بسماع الوجه الثاني من شريط القياميات . فقالت صالومي :

— بعد هذا الحديث المتهدج الذي ما خلا من فوائد عديدة ، سألبّي طلبك بكل سرور .

شادي — ها قد غيرت موقفك .

صالومي — عندما اغير اغير استناداً الى قناعات عميقة لا ذهابا مع كل ريح . في تصرفاتي ثقل وعمق .

شادي — انت تشتمينني .

— هل قول الحق شتيمة ؟

— أنت تشتمين شتماً لا تقولين الحق قولا .

— الحقيقة تجرح . استمع الان الى القياميات ، واطرب لها فانها خير من طقاطيقك المختارة .

وساد الصمت. واشتط ذهن توما عن الحلويات والفاكهة، فتناولها بدون تلذذ، إذ انصرف انتباهه الى الترانيم فالارتكاض فرحاً. ولاحظ الحاضرون اختطافه، فقال له مرقس:

— هنيئاً لك.

اليصابات— يا ليتك تجذب تيطس وماريا وصالومي وفيلبس!

شادي— لماذا ذهلت عني؟

— وأنت ايضا (وهي تتلعثم)

— لا تلفظين ذلك من كل قلبك.

— اتمناه من كل قلبي ولكن...

وقاطعت ماريا:

— يا امّاه! فيلبس وانا صديقان اصيلان لتوما.

شادي— انتما شاذان على القاعدة.؟

ماريا— ما هي؟

— قال الشيخ ناصيف اليازجي:

سألت الناس عن خلّ وفيّ فقالوا: ما لهذا سبيل
تمسك، ان ظفرت، بذيل حر فان الحر في الدنيا قليل

فيلبس— لا تضعنا رأسا في جو التشاؤم. نحن في جو القيامة، فشدّد عزيمتك. «المسيح قام».

شادي— ولكن خارج هذه البلاد.

توما— هنا وفي كل مكان.

روبير— المسيح موجود بيننا ومعنا.

ماريا— وفي قلوبنا.

فيلبس— وعلى شفاهنا والسنتنا.

شادي— ومع كل واحد منا.

وقهقه الجميع طويلاً. ثم وقف مرقس وتلا الصلاة. وانتقلوا الى القاعة يحتسون القهوة. وتفتحت قريحة شادي لاطلاق النكات حتى اوشك ان يفسد الاجواء، فانتهرته اليصابات. وثنّى مرقس، فانزعج وانصرف مسرعا وفي النفس مرارة دون ان يستجيب لطلب صالومي وماريا العودة عن قرار الانسحاب. وانفرجت اسارير توما وروبير. فقال هذا:

— متى ينضج شادي؟ ايبقى الى الأبد اسير الخفة في الرأي وريشة في مهب الرياح؟

ماريا— من المستحيل ان ندعم شخصيته. فهو انسان بلا رأي. والشاعر قال قديما:

الرأي قبل شجاعة الشجعان...

تيطس— هو بلا رأي ولا شجاعة.

صالومي— هو قصبة تحركها الريح. وجوده سلّانا.

مرقس— امن أجل تسليتك نهمل انساناً مخلوقا على صورة الله؟

ماريا— اظن ان تكوينه يقف حجر عثرة في سبيل تقدمه.

فيلبس— الا يستطيع التدريب ان يحسّنه وليس الرجل بلئيم ولا بمبطّن ولا بخبيث.

ماريا— توما وانا نعرف علمياً ان التكوين الضعيف لا يقبل التجويد الا ضمن حدود منخفضة. ولو كان خبيثاً لكانت المصيبة فيه اعظم.

روبير— شخصية الانسان لا تنشأ في طفرات اثناء الرجولة، تبدأ في الطفولة بين الاهل وفي المدرسة. فان كان الأساس فاسدا فجميع ما يقوم عليه سيبقى واهيا، الا اذا صنع الله معجزة.

توما— اني مسرور جدا لهذه المناسبة التي جمعتنا. الفضل فيها لصالومي. وزاد في سروري حضور روبير الذي انعشنا بمعلوماته القيمة. أرجو للجميع دوام الاطراد في معرفة يسوع. فانه امل الحياة.

صالومي— أَعَدْنا الى المعزوفة؟

روبير— نعمَ المعزوفة هذه المعروفة. الله مهنة الحياة. ماذا يصنع الحائك؟ المسيحي حائك ينسج في نفسه يسوع.

— ماذا تقول؟ أأنا حائكة ويسوع هو الخيوط التي انسجها ثوبا لي؟

— نعم!

— أنت وتوما تبشران بدين جديد.

— لا نبشر الا بما بشَّر به الرسل وآباء الكنيسة. والمسيحي ليس فقط حائكا ينسج يسوع في داخله بخيوط الفضائل، بل هو جندي. بولس قال في التقوى انها مهنة. واستعمل للمسيحي اسم الجندي ولوسائله في الحرب الروحية اسماء الاسلحة من سيف وترس وخوذة و...

— إن رضيت بان اكون حائكة، فمن اين لي ان أكون جندية وجسمي متعوّد على النعومة وسهولة العيش؟

— هذا عمل الله القادر ان يحول نعومتك الى صواريخ في بطن الشر. اريدي الله عن كل قلبك وكيانك بحرارة اتون مضطرم اضعافا مضاعفة، فيكون كل امر معجز. ضعي نفسك وديعة لدى الله يصبح الله الكل في الكل فيك، فلا يعسر عليك شيء.

— ببضعة سهرات من هذا النوع سانجرف وراءكما. ولكن...

توما— لا نسأل الله سوى ذلك.

صالومي— انت مستعجل جدا.

— وأي خير أعظم من قيادة الانسان الى ملكوت الله؟

— هل انا ضالة؟

— لا سمح الله!

— ماذا اذن؟

— أنت تراوحين بين الجد والهزل. سيفك غير قطّاع.

— أتريدني عدوانية مفترسة؟

روبير— سيف الروح امضى من السيف المهنّد.

— لا استطيع ان اجاريكما.

— لأنك لا تصلين

— أصلي.

— ببرودة وعجلة واختصار.

— هل انا ناسكة لاقضي الوقت كله في الصلاة؟

— وهل خلقك الله لتقضي ٢٣ ساعة و٥٠ دقيقة يوميا في النوم والطعام والعمل والتدبير المنزلي ومطالعة المجلات، لتُبقي له ١٠ دقائق من ذكر عابر يختلط بشتات الهموم والأفكار؟

توما— هذا هرب من الذات وتسلية عن الفراغ الداخلي للانطلاق على بساط ريح الاوهام والشرودات.

ماريا— الفراغ الداخلي مرض جماعي عام.

مرقس— والدواء؟

توما— يسوع وحده يملأ الكون والوجود الداخلي.

صالومي— أنت مهووس بيسوع. والهوس مرض.

اليصابات— اهنئ توما على هذا المرض.

ماريا— يا ليتني كذلك.

فيلبس— ما زلت بحاجة الى صحوك.

ماريا— يسوع هو كمال الصحو.

تيطس— الا ان الاعتدال ضروري.

ماريا— أمِنْ حظي بقسط من يسوع يستطيع ان يقف عند حد معين؟ طالعت في كتاب «سر التدبير» رأياً للقديسين غريغوريوس النيصصي وغريغوريوس بالاماس عن ابدية تقدمنا والملائكة في العالم الآتي في محبة الله غير المتناهي. فلا نشبع اذن من الله بل نبقى في جوع دائم الى أبد الآبدين. حالتنا الفردوسية غير ثابتة بل مطردة النمو الى الأبد. والله هو راحتنا على ما قال مكسيموس المعترف. فيه نرتاح هو مستقَرنا.

روبير— لله درك! أقليل ان يحظى شرير مثلي بنعمة الذهول بيسوع، فيصاب باختطاف وانجذاب لا يعلم سوى الله نهايتهما؟ يا لاحسانات الله التي لا توصف! انقذنا، اللهم، من بلادة الذهن وغفلة العقل.

صالومي— تحولت الاطعمة في بطونكم الى نشوات صوفية مستيكية Mystique واعتدوا لكم حلقة صوفية، وأرونا فرائد التصوف وغرائبه.

فيلبس— يبدو انك تستطيبين الحديث مهما بدوت مشاكسة.

بموجب هذا المعدّل سنبقى الى الفجر. قوموا بنا ننطلق.

تيطس— لماذا العجلة؟

— عندنا اعمال غدا.

اليصابات— نحن مسرورون باحاديثكم.

فيلبس— لن يكون اللقاءَ الاخير.

ماريا— اشكر الله الذي هدى توما لينعش مسيحيتنا المغلَّفة والمودعة في ثلاجات البرادات.

توما— وانا اشكر بدوري الله الذي انتشلني من وهدة الزلات ولجج الخطايا والشرور وجحيم البؤس واليأس، وأهلني لنيل المعمودية بعد ايام ناقلا اياي من

عبودية فرعون في مصر الى حرية ابناء الله في سيناء الظهور الالهي البراق ، ومن أرض الظلمة والظلال ، والموت والفناء ، الى عرش النعمة في السماء.

اليصابات— «الف مبروك».

وكرر الجميع التبريك بما فيهم صالومي في نهاية المطاف ، فكان ذلك ايذانا لطيفا بالانصراف. فشيِّع الضيوف الكرام بالحفاوة البالغة التي فاقت حفاوة الاستقبال. وخرج كل الى منزله ، فسريره ، مغمورا بحلاوة الاجواء ، تداعب فيه ليله اقدس التأملات ، ويردد احلى الاذكار خاشعا لرب العباد.

وفي اليوم التالي صرّف توما شؤونه وادار سيارته باتجاه دير الحرف فوصلها بعد العصر.

الفصل التاسع عشر

وقف توما على تلة في دير الحرف يستعرض الطبيعة ، فناجى الله مذهولا :

— يا من زينت الكون بكل هذا الجمال الساحر الفتان ، هل تتركني لوحدي انا صورتك ملطخا بالذنوب والزلات ، فابدو بين بدائع خلقك نقطة سوداء تشوه لوحة فنية ما صنعها انسان ، بل انت يا رب العباد؟ اتكون شمسك المادية هذه زاهية الالوان ، ترسل خيوطها الذهبية على هذه الخضرة والتلال ، فتكسوها حلة من الجمال والجلال ، وأكون انا صورتك مغشيا بقتام الظلام؟ لا تتركني وحيدا في هذا المجال لئلا يبتلعني حوت الهلاك.

وقصد منسك باخوميوس الذي كان ينتظره على احر من لظى الجمر. فاستقبله بفرح عظيم وسأله :

— ما حاجتك اليوم؟

— يسوع سحرني. ملك لبي. خطف قلبي.

— أخشى ان يكون غرامك عابرا او كغرام المراهقين والمراهقات ، او نزوة عاطفية شعرية ادبية. هل انت شاعر؟

— لا احترف الشعر الا عرضا. انا استاذ بيولوجيا. المفروض فيّ ان اكون عالِماً موضوعيا يكبت عواطفه وذاتياته، ويلوذ بالوضعية لا بالغيبيات.

— قد تكون عاطفيتك ثورة ونقمة على جليد العلم والموضوعيّة والوضعية، لتستعيد الطبيعةُ حقوقها ضد هذه القيود المسرفة لحرية جيشان عواطف الانسان.

— هل الروحاني متحلل من امثال هذه القيود؟

— الروحاني صاحب ضمير مرهف يبز كل ما توهمه العلماء من موضوعية ووضعية. لسنا حجارة لكي نردّ كل شيءٍ ببرودة. الحيوانات نفسها هي ذات انفعالات. فكيف نجرد الانسان، باسم العلم، من العواطف؟

— والمهم؟

— هو طهارة الضمير المستنير. فهذه تجمع الحياد والنزاهة والتجرد والحق والحقيقة في مسلك الانسان، دون كبت للعواطف باسم الوضعية.

— ولكن العواطف تؤثر في الاحكام.

— العالم البارد عاطفيا معرض للخطر أكثر من صاحب الضمير الحي. هذا يراقب كل شيءٍ بوعي كبير في نور المسيح. ذاك مكبوت. والله اعلم بخفايا تحركات المكبوتات. فكثيراً ما تطلع النتائج خلافا للمطلوب الحق.

— اظن ان تعلقي بيسوع هو تعلق الانسان الواعي الحاسب بدقة لأبعاد الاشياء.

— ان صمد تعلقك بعد المعمودية انقلبت الامور جدا.

— كيف؟

— تعلقك الان هو تعلق انسان دعاه الله. في المعمودية والميرون يضحي تعلقك — ان احتفظت بحرارتك الحالية — نعمة من الله.

— الفرق كبير حتما؟

— طبعا! انت لوحدك الان تقريبا. آنذاك يسوع والروح القدس، في

قلبك ، في صدرك ، محركان اقوى من كل المحركات الذرية لاطلاقك لا الى المريخ بل الى السماء الابعد من جميع المجرات التي اكتشفها العلماء والتي لم يكتشفوها بعد.

— ماذا علي أن افعل لنجاح ذلك؟

— أن تبقى حرارة محبتك أكثر اتّقاداً وتوقّداً من الشمس.

— أنا عاجز عن ذلك لوحدي.

— سيكون يسوع وروحه القدوس القوتين الدافعتين لك الى الآب السماوي.

— هل تسمح لي ان اعود الى غرفتي لأسجد؟

— اسجد لنسجد معا هنا.

وسجدا صامتين يصلي كل منهما في قلبه حتى ابتلت الأرض بدموعهما. فقطع بخوميوس ذهوله بالله لطفا بتوما ، فقام وامره ان يقوم. وصرفه بسلام على ان يعود في اليوم التالي بعد القداس الالهي. فعاد وقضى ليله وصباحه مع الله في تأملات وقراءات.

ووافى بخوميوسُ في الضحى وسأله :

— أود أن اعرف علاقة المعمودية بالعنصرة والتجلي. فقد طالعت في العدد ٣ لعام ١٩٧٩ من مجلة «النور» عن ظهور ربنا يسوع المسيح في الاردن.

— لاحظت في المقال ، طبعا ، مدى ارتباط الروح القدس والماء. في انجيل يوحنا الامر قاطع. في الاناجيل الاخرى : الماء والروح والنار.

— هذا واضح. وعلمت انواع المعموديات. وعرفت ان الظهور الالهي على الاردن هو اعتلان الثالوث القدوس الأول. واعجبتني ، في الانجيل بحسب مرقس ، عبارته عن انشقاق السماء. فالمعمودية شقت لنا السماء شقا ، فاضحت السماء عاجزة عن اغلاق ابوابها أمام الوافدين الى المعمودية. وعلمت ان الحمامة تظهر لدى انبرام العهود ، وارتباطها بالروح القدس.

— اعلم، يا عزيزي، ان ظهورات الله في العهد القديم مقرونة غالبا بالنور والغمام. ولذلك سمّى الآباء عيد الظهور الالهي (الغطاس) عيد الانوار. فالثالوث نور ثلاثي ظهر في الاردن.

— والعنصرة؟

— نزل الروح بصورة السنة نارية. والنار تطهر كل شيئ دنس وقذر النار تكشف معدن الأشياء. الصناعيون يعالجون المعادن بالنار لينظفوها من الاتربة وسواها ويستخرجوا المعدن الصافي. الابن أُرسَلَ، من لدن الآب،الروحَ القدس. الروح القدس عمّد الرسل بالنار.

— ما قصة هذه الادوار بين الثالوث الواحد؟

— القديس غريغوريوس اللاهوتي اعتبر العهد السابق للتجسد عهد ظهور الآب، والعهد اللاحق للتجسد عهد ظهور الابن، والعهد اللاحق للعنصرة عهد ظهور الروح القدس. والذهبي الفم اعتبر الانجيل سيرة اقوال المسيح وافعاله، وكتابَ اعمال الرسل كتابَ افعال الروح القدس واقواله.

— حدثني عن الروح القدس.

— هذا موضوع للطرح بعد اعتمادك.

في اليوم الخمسين لخروج بني اسرائيل من مصر أعطى الله الشريعة لموسى في جبل حوريب وسط ظهور الهي عجيب. وفي اليوم الخمسين بعد القيامة، حل الروح القدس على التلاميذ، فدوّن الشريعة الجديدة في القلب، كما قال ارمياء النبي، لا في الواح حجرية. في هذا اليوم اعتلنت ديانة الروح وانطوت ديانة الجسد والختانة وسائر فرائض الناموس الموسوي وذبائحه. اليوم عقد الله معنا عهدا جديداً. في عيد الظهور (الغطاس) حل الروح القدس بهيئة حمامة. اليوم حل في صورة السنة نارية. في المعمودية نعقد عهدا مع الرب. في المعمودية نوقع روحياً عهدا مع الروح القدس.

— وأيضا.

— زرع المسيح فينا كما اشرنا سابقا. اسّس الكنيسة التي هي جسده، والمؤمنون اعضاؤه واعضاء بعضهم لبعض، لدرجة ان اهتمامي بك هو اهتمام بعضو من اعضائي.

— وأيضا.

— نزلت السماء الى الأرض، فرفعت الانسان الى يمين الله حيث المسيح جالس.

— هل نار العنصرة نور؟

— الله نور وليس فيه ظلمة البتة. والعنصرة عيد ظهور النور الثالوثي الشعاع. هي عيد الثالوث القدوس.

— لماذا حلت الألسنة على الرؤوس؟

— الرأس اعلى ما في الانسان. اعاد الروح القدس الينا رئاستنا (التي فقدناها في عدن) بواسطة تطهيره ايانا بناره، اعاد الينا أصالتنا، وسلطتنا الملوكية. مسحنا بالنار والنور. كان الملوك والكهنة في العهد القديم ينالون مسحة. الروح القدس مسحنا بحلوله على رؤوسنا. في بابل بلبل الألسنة. في العنصرة جمع الألسنة وازال تفرق الشعوب والقبائل وتشتتنا الداخلي، فصرنا الى واحد في الهنا الواحد.

— الروح القدس حَلَّ على المسيح يوم اعتماده.

— الروح القدس استقر في المسيح يوم اعتماده. وهذا بدء لعملية العنصرة. في العنصرة صرنا جسده الحامل روحَه القدوس. مسحَ يسوعَ يوم اعتماده. مسَحنا يوم العنصرة لنكون كالمسيح في كل شيئ: لحم من لحمه وعظم من عظامه، ممسوحين بالروح الذي مسحه.

— انا ارى ان العنصرة عيد شامل.

— عيد النِعَم والمواهب وكل عطية صالحة.

— وما علاقة العنصرة بالتجلي؟

— التجلي ظهور للثالوث ايضا. الآب تكلم. يسوع موجود. الروح القدس الساكن فيه سطع كالشمس في وجهه وثيابه البيضاء البراقة.

— اين العلاقة؟

— العنصرة تمنحك التجلي. المعتمد انسان يتجلى في الثالوث القدوس.

— هل يشع كالشمس؟

— الذهبي الفم وآباء كثيرون من بعده علّمونا ان المعتمد حديثاً يفوق الشمس لمعانا. كيرللس الاسكندري ذكر ذلك حتى في شأن الاطفال. كلام الذهبي ذهب مضرب الأمثال فاستشهد به الآباء.

— المعموديّة استنارة اذنْ؟

— انها استنارة، انها ظهور نوراني. غريغوريوس بالاماس أجاد في التحدث عن اعتلان الله فينا واعتبره دوما ظهورا نورانيا. المعمودية تطرد الظلام. وان حافظنا على نعمتها، بالمداومة على الصلاة والاحسان والجهاد في القداسة، اطَّرد إشعاعها البراق في حركة نمو واسعة لا تتوقف ابدا.

— في ترانيم القيامة لاحظت الحديث عن النور أيضا.

— الملاك اللامع عند القبر يذكرنا بعيد التجلي في لباسه ولمعانه. فهنا ايضا نحن امام ظهور الهي مجيد. غريغوريوس اللاهوتي اعتبرها عيداً للثالوث، وعيدَ ميلاد. وتعلّمْ أن النور الالهي اضاء الرعاة يوم عيد الميلاد. احدى ترانيمنا تذهب الى ابعد من ذلك.

— ماذا تقول؟

— عندما انحدرت الى الموت... حينئذ امتَّ الجحيم ببرق لاهوتك»...

— أحتى خلال رقاده كان يسوع براقا؟

— لاهوته هو هو. يسطع في كل مكان وان لم تشاهده عيوننا. على الصليب كان ظافرا. وأي ظفر اعظم من تسميره جميع خطايانا بالمسامير التي ثقبت يديه ورجليه؟

— أهو نور حيثما كان؟

— هو، بتدبيره الالهي، حجب نوره عنا، فما شاهدناه الا يومَ التجلي. لا نستطيع ان نراه. طلب موسى ان يرى الله فاعلمه انه ما من حي يستطيع ان يرى الله، فيبقى حيا. الله فوق متناولنا الا بالقدر الذي يشاء ان يسكب نعمته في قلوبنا.

— النور لا يفارقه اذنْ؟

— هو النور الحقيقي الذي يضيءُ كل انسان. فهل يفارق ذاته؟

— احمد الله على هذه الايضاحات. ولكن هل هو نور مادي؟

— حاشا! هو نور روحاني. اللاهوت روح لا مادة. نور التجلي نور غير مخلوق، نور صادر من جوهر اللاهوت قد تجلى في الجسد بحسب تعليم أبينا بالاماس.

— الجسد يشترك في المجد اذنْ؟

— لهذا نؤمن بقيامة الاجساد واشتراكها في المجد. كان ظل بطرس يشفي المرضى. ومناديل بولس كذلك. وهدب ثوب يسوع شفى النازفة الدم، فقال ان قوة خرجت منه. التجسد الالهي، قدّس في العنصرة الخليقة كلها. اما نقدس الماء في المعموديّة والخبز والخمر في القداس الالهي؟

— النعمة تتغلغل حتى في العالم المادي اذنْ؟

— أما نكرّم الايقونات؟ لولا التجسد والعنصرة لما وصلت النعمة اليها.

— بولس قال اننا هياكل الله وهياكل الروح القدس.

— وقال ايضا ان اعضاءنا هي اعضاء المسيح.

— أجسدي هذا الذي تعصف به الاهواء والرغبات الممقوتة، سينال كل هذا؟ سبحان تنازل الله!

— نعم! جسدك هذا اداةُ الاثم يتحول بالمعمودية والروح القدس الى اداة

للبر. يسوع يبرر ويقدس روحك وجسدك. تحل النعمة في روحك وتمتد الى جسدك. القوة خرجت من هدب ثوب يسوع.

— احمد الله، احمد الله.

— اذهبْ واسترح اليوم. هل طالعتَ عظات الذهبي في المعمودية؟

— نعم!

— طالعها ثانية، فانها تقودك في باب التعرف على الفضائل والرذائل.

— أعجبتني جدا. هو مفسر رائع. جعل السكران اخطر من الممسوس وأردأ. وصوّر عيوب زمانه وكل زمان، وطعن في الرخاوة والفتور، والتسامح مع النفس، والاشفاق عليها.

— طالعه ثانية وطالع الفصول ١ — ٢ — ٧ و٨ و١٢ من رومية و٦ و١٢ و١٣ من كورنثوس الأولى، وافسس على الاخص. فالاستعداد الاخلاقي صار ملحاً في هذه المرحلة. وعد في الغد لنباشر موضوع طقس المعمودية.

— صل من اجلي بحرارة.

— كان الله دليلك في جميع طرقك ونورا لسبلك.

وانصرف من لدنه يتنزه كالعادة ويتناول طعامه خارجا مسبّحاً الله في القلب ومتأملا كلام بخوميوس.

واشتدت جدا عليه وطأة الشعور بالدَين لله. فكان يحفر نفسه لينبش خطاياه ويقيس بشاعتها بمراحم الله. كان يتصور تنازل يسوع في التجسد، وصبره على الصليب، ومجد القيامة والتجلي، ورحمةَ العنصرة، فتفيض عيناه دمعاً.

وتساءل: من أنا لكي يجزل يسوع لي العطايا بهذا المقدار؟ من انا لكي يسفك دمه من أجلي؟ انا تراب بل التراب لا يخطأ، اما أنا فجحيم مضطرمة بالآثام. ومع هذا ارتضى الله ان يحملني على منكبيه.

وكلما غاص في هذا التفكير ازداد شعوره بعدم استحقاقه، وقوي تواضعه

وانسحاقه امام الله. وعاد بعد الغداء للقيلولة في الدير. وقضى يومه في المطالعة والتأمل والصلاة والتسبيح. ولفتت انتباهه عبارات يسوع عن سكناه والآب في الذين يحفظون كلامه ، وكيف ان يسوع جعل حفظ كلامه دليلا على محبة المؤمن له .

فقال لنفسه : مهما اراد المرء ان ينسب الخيالية الى المسيحية ، فانها اقرب الى الواقع . فهي تجعل المحبة اساسا ، أي انها اختارت اقوى عواطف الانسان وافضلها . وجعلت المحبة سبيلا الى حفظ وصايا الله . هذا شأن منطقي جدا . فالأخلاق هي ترفّع عن الاهواء والرغبات والدنايا ومعاكسة للغرائز والرذائل . الانسان يميل الى الشر منذ حداثة سنه . فكيف نستطيع ان نغيّر مجرى النهر المنحدر فنرفعه صعودا ، ان لم نبذل جهدا مضنيا ودهاء وحنكة ؟

والله اختار المحبة محركاً لنسير وفق كلام يسوع لا وفق اهوائنا . فبدون مثالية لا تستمر الاخلاق . ومحبة الله هي تعلق بالأمثل . والمحب يجاري رغبات حبيبه .

المحبة هي ، اذنْ ، العاطفة النارية التي تصلني بالله ، فتجعل كلامه احلى من العسل في حلقي ، ونغماته اعذب من تغريد البلبل في اذني . ولولا محبة المؤمنين ليسوع لكان كلامه علقماً .

لذلك اعتقد ان تراخي الناس ناتج عن سقم في المحبة . ان بردت محبة الناس ليسوع فترت همتهم عن عمل الصلاح . وبدون صلاح لا قيامة للطهارة . وبدون الطهارة لا يقيم الثالوث القدوس فينا . المسألة سلسلة متصلة الحلقات : محبة ، طاعة كلام الرب ، تطهر بكلام الرب ، سكن الله فينا .

ربي ، بالحقيقة ، اعمالك عظيمة ، ربي !

وبعدما صلى طويلا واقفا وراكعا وقاعدا ومستلقيا في سريره ، اخذه السبات وهو يقول : «يسوع ، يسوع ، يسوع اقبل روحي» .

الفصل العشرون

وفي الضحى اتى توما حاملا الافخولوجي. فقال له بخوميوس:

— أخشى ان يكون الاستعجال خطرا على النضوج. اصرفْ هذا النهار في المطالعة والنزهة وعد في الاسبوع القادم.

تذمر توما قليلا. ثم سيطر على نفسه. قال له بخوميوس:

— الطاعة الروحية اساس متين للنجاح الروحي. لا تستطيع ان تكون تلميذا ناجحا الا اذا كنت مطيعا.

— قرأت في سلم الفضائل فصل الطاعة.

— أعد قراءته ففيه فائدة كبرى.

ومضى توما يرتاح، ويقضي الاسبوع في الاعتناء بامر الطاعة ومطالعة فصلها في سلم الفضائل.

وطلبت انسطاسيا ان تزور بخوميوس معه. فبدل الموعد وصعدا سوية صباح الاحد باكراً.

فحضرا القداس وخرج هو لدى بدء قداس المؤمنين.

وفي الضحى زارا بخوميوس فرحب بهما اوسع ترحيب. وتناول من يد توما الافخولوجي وقال:

— من المؤسف ان يكون هذا الكتاب خاصا برجال الدين بينما يستفيد الشعب جدا من مطالعته. اما تشاء ان تعمل اعمالا تليق بالتوبة فيكون لك ثمر منها؟

— هذا غاية المنى.

— اطبع خدمة المعمودية لنوزعها على الذين يحضرون اعتمادك. دعنا ندرّب الناس على متابعة الخدمة ونعوّد أهل كل معمود توزيعَها على الحاضرين. فهي خير هدية في هذه المناسبة وأفضل من الحلوى التي توزع انذاك، بل افضل من موائد

الطعام التالية لها . فلو خصّص اهل كل معمود قسما من نفقات اعتماد ابنهم لمثل هذه المطبوعات لأغنوا الكنيسة بدلا من اتخام البطون بالطعام والشراب .

بالفعل ، يجب أن نتخلص من وثنية حضور المعمودية . فالحاضرون لا يعرفون الخدمة ، ولا يولونها انتباههم ، ولا يشتركون إلا في مظاهر الاحتفال .

— سأجعل اعتمادك نموذجيا .

— سأدفع الكتاب غدا الى المطبعة لطباعة ثلاثة آلاف نسخة من خدمة المعمودية والميرون للتوزيع مجانا .

— ألا هدى سواك الى الاقتداء بك . فقلّما تبرع الناس لتوزيع الكتب . رحم الله جورج ريس . مات ولم يخلف عقبا له . الناس عندنا لا يعشقون الكتب ، لا يقرأون . وان قرأوا قرأوا سطحيا . وان فهموا فهموا سطحيا . يهربون من الانزعاج . لا يتحملون تجنيد الطاقة للتفكير روحيا .

— أما لهذا الليل الطويل ان ينجلي بصبح امثل؟

— ما زال قول امرئ القيس هذا قائماً حتى بعد حوالي ١٤ قرنا :

ألا ايها الليل الطويل الا انجلِ بصبحٍ ، وما الإصباح منك بأمثل

فنهارنا ليس بخير من ليلنا . والدولاب يدور ليعود الى نقطة البدء ، كأننا لم نخطُ خطوة الى الأمام .

— تبدو هنا متشائما .

— كلي ايمان بالله

— فلنلق عليه همومنا .

— جاء في المزامير : «القِ على الرب همك وهو يعولك ، ولا يدع الصديق يرى اضطراباً الى الأبد» ايماني بالله اقوى من ايماني بوجودي . ولكن الواقع اليم .

— دعنا نطرق موضوعنا .

— أهلا بك. هل قرأت خدمة المعمودية جيدا ؟

— قرأتها .

— اسمع !

— تكلم ، فاني سمع وطاعة .

— باركك الله بكل البركات السماوية. هل قرأت خدمة السر؟

— نعم .

— انت كبير لا طفل. ستخلع ثيابك جميعا وترتدي ثوبا واحدا طويلا محلول الزنار ليغطي فقط جسمك.

فالخطيئة عرتك من النعمة. وانتَ مثل آدم الذي اكتشف عريه لما خطئ ، فغطّى جسمه بورق التين الخشن. تخلع ثيابك القديمة دلالة على خلعك الانسان القديم ومثولك عاريا امام الله شاعراً بفحش خطاياك. وسيكون رأسك مكشوفاً وقدماك حافيتين ويداك ملقاتين الى اسفل ذليلتين ، مثل العشار الذي لم يتجاسر على رفع رأسه الى فوق. فأنت في موقف الذليل امام الله. اين ورد في الكتاب المقدس ذكر للرجلين الحافيتين ؟

— لما أمر الله موسى بخلع نعليه لان المكان مقدس .

— وأنت ستكون في الكنيسة ، المكان المقدس ، متجها نحو الشرق لاستقبال يسوع المشرق من الاعالي. وماذا رأى موسى ؟

— رأى نارا في العليقة. وتكلم الله فاعلن له اسمه .

— ما هو اسمه ؟

— أنا «الكائن» في الطبعة الكاثوليكية ، «وأهيه أشر أهيه» في الطبعة البروتستانتية .

— هذه استعملت الأصل العبري. من أجل الموضوع برمته طالع فيما بعد كتاب «يهوه أم يسوع ؟» .

— افدني ببضع كلمات الان

— اعلن الله لموسى ان اسمه هو حرفيا : «أكون من أكون... يكون...» (خروج ٣ : ١٤— ١٦). الله هو الموجود دائما وسرمدا.

— الحادثة بالغة الاهمية.

— طبعا. والمكان مقدس. وأنتَ يومَ اعتمادك ستكون في موقف أكثر رهبة.

— لماذا؟

— مر معنا ان معمودية المسيحيين معمودية نار. قال الكتاب : «الهنا نار آكلة». الاّ أن العليقة لم تحترق كما ان حشا البتول لم يحترق لما حلت نار اللاهوت فيه. وستحل هذه النار فيك يوم اعتمادك فتحرق خطاياك وتبقى لا كما في السابق، بل مجدّدا بنار التطهير.

— لم تشرح فرقَ الرهبة.

— العليقة ونارها رمزان للحقيقة. يوم اعتمادك تظهر هذه.

— ما هي؟

— الله لا يظهر لك بل سيكون فيك. آباء الكنيسة علمونا ان موسى وكل رجال العهد القديم رأوا الامور عن بعد. كابازيلاس من اواخرهم الذي اتى على ذكر الموضوع. اما قرأته؟

— أي موضوع؟

— كل الناس كانوا في الجحيم حتى جاء يسوع فاخرجهم منه. للقديس ابيفانويوس خطبة رائعة في نزول الرب الى الجحيم ورؤية جميع آباء العهد القديم فيه بما فيهم ابراهيم وداود ويوحنا المعمدان.

— ماذا تعني؟

— ظهورات الله لهم خارجية. ظهوره لك سيكون تجلياً فيك. جرن المعمودية اقدس من العليقة وسيناء وحوريب.

— لله در هذا السر؟ كيف لا يولي المسيحيون الجرن هذا الاحترام والتقديس ؟

— انه الجهل. جرن المعمودية اخو المائدة المقدسة.

— من الضروري تنوير الناس. لا اعرف انساناً يسجد امام الجرن او يقبله.

— الجهل الجهل! بل الاستخفاف بالدين لدرجة اختفاء الرغبة في التضلع من اموره. أية مجلة تافهة تلقى ترحيباً أكثر بمائة ضعف من كراسة خدمة المعمودية التي ستطبعها، وتربح تلك ربحا فاحشا بينما لن تجد من يدفع لك ليرة واحدة ثمن الكراسة. ستضطر الى توزيعها لمجد الله.

— ألهذا الحد انخفت صوت البشارة المقدسة؟

— بل الى ادنى مما تتصور. الدين قشور وتملق ومظاهر ووجاهة وزعامة فارغة. والمهتمون به ممثّلون مزيّفون انتهازيون انانيون «منفاخيون».

— فلنعدْ الى سياق موضوعنا.

— يلبس الكاهن ثيابه.

— ثم...

— ينفخ في وجهك ثلاثاً. اين يرد ذكر النفخة في الكتاب؟

— نفخ الله في آدم فصار آدم نفساً حية.

— وأيضا.

— ونفخ المسيح يوم قيامته في التلاميذ فاعطاهم الروح القدس ليغفروا الخطايا.

— وأنت في المعموديّة ستكون خليقة جديدة محلولة من خطاياها.

— ثم...

— يرسم على جبهتك وصدرك اشارة الصليب ثلاثا، وهو يقول ثلاثا ايضا: «باسم الاب والابن والروح القدس، آمين!»

— المعنى ؟

— أنت انسان بعقلك وقلبك. ان تجدّدا تجددتَ فعلا. الصليب باسم الثالوث القدوس يجددهما، لأن دم المسيح المسفوك عليه هو يطهرنا من كل خطيئة وهو الماءُ الذي يجبلنا به الله في المعمودية. الصليب يطرد باسم الثالوث من عقلك وقلبك كل شر ويفتح لك الباب للدخول في عملية الاعتماد. ماء المعمودية يحمل نعمة الفداء بدم يسوع. به ينضحنا الرب كما كان رئيس الكهنة في العهد القديم يرشّ دم الحيوانات المضحّاة.

— وماذا بعد؟

— يضع الكاهن يده اليمنى على رأسك، ويتلو عليك صلوات. اين يرد ذكر لوضع اليد على الرأس؟

— المباركات تتم بوضع اليد على الرأس. حتى حلول الروح القدس، كان يتم بوضع اليد على الرأس، على ما نقرأ في «اعمال الرسل» وبولس الرسول

— الصلوات الاربع هامة. الأولى صلاة لأجلك. الثلاث الباقيات استقسامات لطرد ابليس وجميع اعماله منك.

— هل انا خاضع بعدُ للشيطان؟

— اقرأ الفصل ٨ من روميّة. الخليقة كلها تئنّ. اما رأيت في الانجيل كم كانت سلطة الارواح الشريرة قويّة على الناس؟ اما قرأت الفصل القائل بأن احدهم كان ممسوسا بفرقة من الشياطين؟ ما عدد افراد الفرقة؟

— لا أدري.

— كانت فرقة الجيش الروماني تزيد على خمسة آلاف جندي. حلت الفرقة في ٢٠٠٠ رأس من الخنازير فسقطت من على الجرف الى البحر. على الأقل كان ٢٠٠٠ شيطان ساكنين في الشخص المذكور، ان لم يكن ٥٦٠٠ اي فرقة كاملة.

— المسيح قلب العالم.

— هدم مملكة الجحيم. تجسده وصليبه سحقا قوة ابليس.

— ولكن ما زال قويا.

— قبل المعمودية هو قوي ولكن صليب المسيح اخزاه كثيراً وفي المعمودية يخرج ويحارب من الخارج بلا قدرة على السكن في الداخل. عشوشه في داخل الانسان تلاشت بالمعمودية.

— وبعد هذا.

— ينفخ الكاهن في فمك وجبهتك وصدرك ثلاثاً وهو يقول ثلاثاً: «أبعد منه كل روح شرير نجس مخفي ومعشّش في قلبه». وهكذا يتطهر فمك وعقلك وقلبك من الأرواح الشريرة بفعل الثالوث القدوس لتنال عقلا متألها وقلبا متألها وفما ينطق بالإلهيات، من فضلةِ قلبٍ قد تألَّه.

— ثم...

— يتلو صلاة لهذا الغرض هامة جدا، لاستبعاد ابليس واعماله الشريرة ولضمك الى جسد يسوع.

— وبعد.

— تبدأ عملية الاتجاه نحو الغرب لرفض الشيطان وكل اعماله واباطيله ثم الاتجاه شرقا لموافقة المسيح. وتتكرر ثلاثاً مع تلاوة دستور الايمان ثلاثاً. وحين الاتجاه شرقاً على الموعوظ ان يرسل يديه الى اسفل مجددا دلالة الاستسلام.

— ثم...

— يتلو صلاة هامة لاستبعاد ابليس وشروره، ولضمك الى جسد المسيح.

— وبعد.

— تبدأ حفلة رفض الشيطان.

— صفها لي واشرحها.

— يقول لك الكاهن: «اترفض الشيطان وكل اعماله وجميع ملائكته وكل عبادته وكل اباطيله؟» وتجيب: «نعم ارفض الشيطان» ويتكرر ذلك ثلاثاً.

— ماذا يعني هذا؟

— يعني اقراراً على اسم الثالوث بالانفصال عن مملكة الشيطان. والاقرار ملزم للمقِر. وفي المسيحيّة شهادة اللسان ارتباط بعهد وميثاق. الشهداء هم شهود للمسيح شهدوا له بافواههم امام الملوك والولاة والجلادين. رفضوا انقاذ رقابهم لقاء انكارهم يسوع. اقرارهم باللسان أمام السيوف وأنياب الوحوش دفع اليهم الملكوت غنيمة.

— رفضي الشيطان سيَعْني، اذن، انسلاخي عن مملكته وكرهي الحادّ لها ولكل اباطيلها، فلا أعود اسجد لأي شيْ دنيوي بل لله وحده.

— كل رفض يصدر عن أَسَى في النفس ولوعة وكره. الرفض غضبة على المرفوض بل ثورة ان كان الامر ذا خطر.

— وأي خطر افحش من مملكة الشيطان؟ والتكملة؟

— يكرر الكاهن العملية بصيغة الماضي لا المضارع فيقول لك ثلاثا: «ارفضت الشيطان؟» فتجيب: «نعم قد رفضت الشيطان». ثم يقول لك: «انفث وابصق على الشيطان» فتبصق عليه.

— ما المعنى؟

— إلحاح جديد ثلاثي على أنك قد رفضت الشيطان كليا وقاطعته مقاطعة حادة باحتقار. فالتقيؤ للبصاق يعني ان كره مملكة الشيطان قد حرّك كوامنك، فشدَدْتَ عزيمتك، ومططت صدرك، وتقيأتَ الشيطان مع بصاق الاحتقار الذي انقذف في فمك كسهم ناري يخترق الشيطان فيكويه.

— وبعد هذا.

— يوجهك الكاهن نحو الشرق لتستقبل المسيح وأنت مرسلٌ يديك الى اسفل

من جديد ذليلا خاضعا مستسلماً لله. اليس ارخاء اليدين مرسلتين الى اسفل علامة استسلام وخضوع وطاعة؟

— جاء الان دور موافقة المسيح.

— يسألك الكاهن ثلاثاً: «اتوافق المسيح؟» فتجيبه: «نعم اوافق المسيح». المسيح يمثل الله في سماع اقرارك. الموافقة هي عقد ينبرم بين الله وبينك. تعلن ثلاثا انك توافق المسيح، فتعقد معه عقدا، عهدا، ميثاقا. يتم انعقاد اتفاق بينكما. لا حاجة الى تدوينه في سند لأنه ليس ارتباطاً ماديا. روحك برمتها هي توقيع على هذا العقد. كلام الشرف اهم من الاسناد المكتوبة. الالتزام بالاسناد خاص بالناس الذين لا يحترمون كلامهم، بالذين ينسون عهودهم، فيُلزِمهم قضاء المحاكم باسنادهم الموقعة.

— لا قضاء هنا.

— أنت تلتزم لرب المجد القاضي العادل الذي لا يحتاج الى أسناد لكي يحكم عليك. هو العارف بكل شيء. أنت تبرم معه عهداً ممهوراً من قبلك بشرف نفسك ونبلها وشهامتها، وممهوراً من قبله بدم الفداء.

— هل للنبل والشرف والشهامة كل هذه الأهمية الدينية؟

— هل من ضمانة فيك للوفاء بالعهد ان لم تكن شريفا نبيلا شهما؟ الكذابون والخائنون والغدارون والمزيفون والمنافقون هم قوم بلا ذمة ولا ذمام. ومن لا ذمة له انعدمت فيه كل الضمانات. والذمة نبل وشرف.

— المسألة خطيرة اذن؟

— يا حبيبي! تستطيع ان تضحك على الناس. ولكنك لا تستطيع ان تضحك على الله. انت تبرم عقدا مع الله. لقد وضعك الله في مستواه فجعلك طرفا في عقد تبرمه معه حرا مختاراً. فاحتقارك لهذا العقد يهددك بخطر يتعادل مع أهمية المعقود معه اي الله. ففكر مليا قبل ان تلتزم.

— الله تنازل لأن يبتّ معي ميثاقاً. يرفع حقارتي من قعر الجحيم ويجلسني معه حول طاولة في السماء. كيف استطيع أن اهرب من هذا الإِنعام السامي المجيد؟ فدتْه روحي. عمِّدني ودعني أمتْ فوراً.

— لن تخسر شيئاً. فتدخل الملكوت فوراً. علّمنا الآباء هذا صراحة.

— وانا ملتهب للاعتماد ودخول الملكوت ولو بالموت عقب الاعتماد.

— أجلْ. يتكرر السؤال ثلاثاً بصيغة الماضي، للتأكيد القاطع على الانقلاب الذي جرى في داخلك، يسألك الكاهن:

«أتوافق المسيح؟» فتجيب: «نعم قد وافقت المسيح». فيسألك ايضا: «وهل تؤمن به»، فتجيب: «اومن به انه ملك واله».

— المعنى كبير.

— تقول «نعم» ايذانا بالرضى والاعتماد على انك قد وافقت المسيح. ولا يكتني، بعد انفصالك عن مملكة الشيطان، بموافقة عادية من طرف اللسان. يطالبك بالايمان به. الموافقة تصدر عن اللسان. الايمان يصدر من القلب. انت الان ترتبط بيسوع باقرار فمك وايمان قلبك الراسخ.

— لماذا الايمان بيسوع ملكا والهاً هام؟

— الديانة تقوم على اساس اننا رعية في مملكته. فما دمت ستنفصل عن مملكة ابليس، فستدخل مملكة يسوع. فأنت مستبدل هويتك من عضو في دولة ابليس الى عضو في دولة المسيح. والايمان بالوهة المسيح هو اساس الدين. فمن لا يؤمن بان يسوع إله يبقى مارقاً في المسيحية على ما قال الآباء. والايمان بيسوع رباً هو عمل الروح القدس لدى بولس الرسول في كورنثوس الأولى ١٢ : ٣.

— وأين الثالوث في هذا؟

— يسوع هو ابن الآب. والروح القدس هو الذي ينطق فينا حين نعترف بالوهة يسوع. الروح القدس مقيم في يسوع. لا يمكنك ان تذكر يسوع بصواب تام دون اعتباره ابنا للاب ومقرا للروح القدس الذي حل عليه يوم اعتماده.

— لله در ذلك ! في المسيحية عمق وفي المسيحيين سطحية فاحشة.

— دعنا وهذا. لنبقَ في المعمودية. بعد هذا تتلو دستور الايمان ويعيد الكاهن الكرة ثلاثاً بصيغة الماضي. أي «اوافقت المسيح؟». ويعود مجددا الى العبارة «اوافقت المسيح؟». فهذا الالحاح ينتزع منك اقراراً تلو اقرار. وفي كل مرة يزوّدك الله بقوة للجهر بالموافقة بأكثر شجاعة. اماالمنافقون فيظهر نفاقهم بالتراخي. الحارون يزدادون حدة وملحاحية وشدة في تشديد نبرات صوتهم أكثر فأكثر حينما يلفظون: «نعم قد وافقت المسيح».

٤٠١ف — التكرار يرسّخ الامور.

— و في الروحانيات يُلهِب المشاعر.

— وماذا ايضا بعد؟

— يقول لك الكاهن: «فاسجد له».

— لمن؟

— للمسيح.

— ماذا أقول؟

— تقول: «اسجد للاب والابن والروح القدس الثالوث ذي الجوهر الواحد غير المنقسم».

— كيف يقول لي ان اسجد ليسوع فاسجد للثالوث؟

— سبق ان شرحت لك ان ذكر اسم يسوع لا ينفصل عن ذكر الآب والروح القدس. يدخلان في ذكره، بالاضافة الى ايماننا بأنه المسيح يعني ايماننا بناسوته، بأنه المسيح الذي جاء طبقا لما انبأتنا الكتب المقدسة.

— وهنا تنتهي خدمة الموعوظ.

— يقول الكاهن: «تبارك الله الذي يشاء ان يخلص الكل وان يقبلوا الى معرفة الحق. الان وكل اوان والى دهر الداهرين آمين!»، ويدعو لك بالتأهل

للانعامات التي ستحظى بها. لقد طال بنا المقام، فارحل واسترح لتستوعب جيدا بتقوى الله وبركاته. واستأذنه ملتمساً ادعيته، فزوّده بها.

أما انسطاسيا فكانت تسمع كلامها مشغوفة. وفي الختام طلبت من بخوميوس ان يباركها ويدعو لأهل بيتها.

وخرجا الى الدير. فعرض توما على امه الذهاب الى عين الصحة فآثرت البقاء في الدير لأن الحديث اجهدها، فودت ان تحظى بسِنة من النوم وهي جالسة في مقعد.

الفصل الحادي والعشرون

وركب سيارته قاصدا عين الصحة، لترتاح اعصابه، ويسبّح الله في خلائقه. وما سار قليلا حتى رأى سليمان يقود سيارته متجها نحو فالوغا. فأومأ اليه، فأوقفا سيارتيهما، وتبادلا القبلات.

ونظر سليمان اليه متفرسا، فقال:

— أوقعتَ القلق في نفسي، وأدخلتَ العلقم الى حياتي.

— ماذا بك؟

— الى أين انت ذاهب؟

— الى عين الصحة.

— سأسير في اثرك. اسبقني.

وبلغا عين الصحة، فترجلا من سيارتيهما، وأخذا يجيلان الأنظار في الآفاق، بذهول واختطاف. ثم دعا توما سليمان الى الجلوس في المقهى لاحتساء القهوة. فقبل الدعوة. وتبادلا الاحاديث حول جلال الطبيعة وجمالها، وكيف ان الله آثر لبنان بجمال فتّان. فاسهب سليمان في وصفه حتى قاطعه توما:

— ولكن ما الفائدة ان كنا لا ننطلق منه الى الجمال الاسمى، الجمال المطلق؟ لقد اسأنا استعمال جمال لبنان. واكارثتاه!

— كيفما اطلقنا العنان للأفكار والاحاديث حوّلت مجرى الأمور نحو الألهيات.

— أليست خيرا من الدنيويات الفانيات؟

— لقد مرمرتَ حياتي. ولم اعد اعرف كيف استعيد عيشي السابق.

— ما بك؟

— لم أعد أتذوق الخمر كما كنت سابقاً. وضعفت معها شهيّتي وألوان بذخي وترفي.

— أي نقص بطرك.

— نعم!

— اتعتبر هذا مؤشراً رديئاً؟

— نعم!

— لماذا؟

— لأني كنت هنيئا أكثر من الآن، وذلك لما كنت غير معذب بأفكارك.

— عجباً! ايقودك الله نحو الصحو وتعتبر هذا ضلالا؟

— دعنا نصمت. لقد صار الصمت اقوى فعلا فيّ من الكلام.

واغرق كل منهما في التفكير الذي يؤاتي نفسه. فتوما انقضّ على ما تلقنه عن المعمودية، واخذ يقلبه على كل الوجوه، ليذرف بين الفينة والاخرى دموعاً رصينة جدا، دموعَ توبة نصوح.

اما سليمان، فاغرق في التمزق الداخلي بين ميله الى احتساء زجاجة خمر متغزّلاً بالموقع ومناظره، وبين الاكتفاء بفنجان القهوة والاعتدال.

وكان ينظر الى توما تارة والى الطبيعة تارة اخرى. وخطر له ان ينافس توما في الصمت فعجز. كان توما قد اعتاد الاغراق في التأمل وتسبيح صانع السموات والارض. اما سليمان، فليس له ماضٍ في العودة الى النفس والتأمل العميق. وأخيراً قطع سليمان الصمت وقال:

— أما تستمتع بالمناظر؟

— اسبح الذي صبّ هذه المناظر، لنرى أصابعه قد نسجت وجودها، سفرا ينطق بعظمة الصانع الفنان الذي خلق، فابدع في الخلق كل الابداع.

— لن تستطيع تبديلي جذريا.

— اعرف ذلك. الا أني اثق بان ضميرك المجروح حاليا لن يصمت الى الأبد. لن تستطيع ان ترفس الى النهاية هذا المنخس.

— أنت نكدت عيشي. دعني أعشْ.

— ما همي سوى ان تعيش.

— فلماذا تنغّص عيشي اذن؟

— ابعث فيك العيش الحقيقي الذي يقضي على عيش الخطيئة.

— تركت الفضيلة لك فاترك الرذيلة لي.

— انت معمود. وأنا سأعتمد قريباً. فستكون عضوا من اعضائي. سأرى فيك صورتي المدفونة مع المسيح. هل ارتاح ان بقي المسيح مدفونا فيك لا يقوم؟ المهم هو نوعية عيشك.

— لم افهم كلامك.

— كل خاطئ هو قبر للمسيح.. يجب ان نسجد امامه كما نسجد امام قبر المسيح الى أن يقوم المسيح فيه. لا تنجرح من كلامي. انه بلسم محبة لجراحك.

— لا أشك في محبتك مهما قسوت علي. الا أني لا أطيق التبدل الى ما تريد.

— ومن قال لك انك أنت الذي تبدل نفسك؟

— من يبدلني اذن؟

— نعمة المعمودية التي نلتها هي مخباط كبير يقرع ضميرك للعودة. فعد ولا تؤجل عمل اليوم الى غد. اما تريد ان تأكل؟ دعنا نتغدَّ سوية.

— لا مانع لدي ان رضيت بأن ادفع ثمن الوقعتين.

— الا تقبل دعوتي؟

— الا تقبل تقديري لمحبتك وعنايتك بي؟

— بكل سرور، ولكن بدون ان يؤلف ذلك تقاضي اجر عن محبتي.

— المحبة هي المحبة. ماذا تعلِّم؟

— غلبتني. لا غلبك شر ولا تسلّط عليك اثم.

— نفسي تدخل نزاعاً مميتا.

— ما نوعه؟

— ضميري يستيقظ.

— لا تغالبه. دعه يفلت من العوائق.

— الأمر أكبر مني.

— لأنك لا تصلي.

— لا أملك قوة على الصلاة. فأفكاري شاردة الى ملذاتي.

— افتح لها قبرا وادفنها جميعا: أفكارا وملذات.

— هي ملء كياني الحي. هي تحيا فيّ أكثر من ضميري بمراحل.

— تذكر الموتَ دوما.

— لا تدعُني اذكره. اشرد سريعاً اليها. انها ارومة لا تقطعها سكين صغيرة.

— ذكر الموت منشار جبار. ولكنك لا تمسك به جيدا.

— اقلب لي هذه الصفحة. دعنا نهتم بالطعام.

نادى توما الخادم وسأله عن انواع الطعام. فأوصى على ما يرغب كل منهما في تناوله. واخذ يحدث سليمان عن جمال الطبيعة المنبسطة امامها. وتنشقا النسيم العليل

البارد. وكان قلب توما يطفح سبحاً لله بينما كان قلب سليمان معتملاً بألوان من الأفكار المتصارعة. وصمتنا حتى الاتيان بالطعام. فصبّ توما قليلاً من الخمر بينما أترع سليمان كأسه، رغم أنف توما.

— والخمر تفتح القريحة، فينطق شاربها حتى بالدينيات والصوفيات. ويختلط الحابل بالنابل حتى يبدو السكير كأنه متصوف. فاطلق سليمان العنان لصوفياته بين الفينة والاخرى، قال بعد احتساء نصف الكأس:

— فعلا هذه المناظر تدعو الى نشوة روحية، فيشعر المرء بأنه طار الى عالم آخر.

وبعد قليل نطق كفرا، فقال:

— ما لذة العيش الا للشاربين.

فعاد توما الى رشده يتساءل عن هذا التناقض المتلاحق، فوجد ان النشوة هي النشوة: السكران ينتشي جسديا، بينما ينجذب الصوفي روحيا. ففتح فاه وقال:

— قبل لحظات كانت نشوتك صوفية. فكيف تحولت هكذا سريعاً الى نشوة جسديّة؟

— الدنيا «طاسة ساخنة وطاسة باردة». البرد في اوانه عذب والسخونة في اوانها عذبة. وكل منهما يطفئ الآخر. وهما في تداول الى النهاية. فليست الخمر كلها شرا. تشرد افكاري في جميع الاتجاهات ومنها الافكار الروحية.

— نفسك معذبة.

— اكيدا. اعرف اني مجموعة متناقضات. ولكن الاستمتاع في الحياة غالب لدي.

— متى غزاك ذكر الموت قطعه واجتث جذوره.

— لم يحن وقت ذلك. متى دقت الساعة كان لكل حادثة حديث.

— هل استطيع أن افهم من ذلك انك لا تيأس من رحمة الله؟

— وهل تخلّى الله عني؟ فانا حي. لو تخلى عني لكنت في القبر.

— لا يهتم الله بقبر التراب. انما يهتم بالقبر الروحي الذي نحفره لانفسنا لنهرب من ملذاتنا. الله يريد خلاصنا لا هلاكنا. القبر الترابي صامت. القبر الروحي محرك كهربائي ضخم، يُجْهِز على افكارنا الشريرة.

— يا توما! كُفَّ عن تقريع افكاري وجَلْدِها.

— لا تهرب من افتقاد الله لك.

— فليؤجل زيارته الى اوان انطفاء قدرتي على الاستمتاع.

— تصبح آنذاك دوحة الاثم، بلا منشار قطّاع. الان لديك قوة للمصارعة. متى هرمت فقدتَ قدرتك على النضال المرير.

— اني عاجز الآن.

— تحرر.

— انا حر.

— بل انت عبد الملذات. افقدتك الحرية.

— اني حر.

— هل تستطيع الامتناع عنها اسبوعاً؟

— لا!

— فأنت عبدها.

— أستطيع الامتناع عنها يوما او يومين.

— تبقى عبدا .

— ما هي الحرية في نظرك؟

— ان تستطيع الاقلاع عنها نهائيا.

— أما تقبل التدرج في الامور؟

— لا ارفضه. الا أن خير البر عاجله. فالتسكع يعني السطحية. والاعمال المجيدة بطولات. وأرومة الاثم لا تهتز الا بضربة معلم قاضية.

— ما علاقة الحرية المعنية بالبطولات؟

— التوقف عن نهل الملذات مستحيل بلا بطولات قاطعة. اتشتري الحرية بأبخس الاثمان؟ كن بطلا واحزم امرك حزمة واحدة. خصمك عملاق فكيف تقابله ان كنت قزماً؟

— اعييتني. دعني هادئا. اصمت.

صمتَ توما متأملا اسارير سليمان وتقلباتها وانفعالاته. اما سليمان فشرد ذهنه. وكان يتناوبه سرور وتعبيس يدلّان على الصراع القائم. فلاحظ توما ان فترات الانتشاء أكثر من فترات التعبيس، وانه مسترسل مع نشوة الخمر ولذة الطعام أكثر من تأثره بالحديث السابق.

وقطع سليمان شروده، فقال:

— اني عاجز عن قطع الاستمتاع بالطعام والشراب والاكثار منهما.

— ولكن ذلك أصلٍ للشرور الاخرى. الجسدانيات تقتل الروح.

— هكذا انا

— واحسرتاه! جعلتَ الادنى يغتال الاعلى.

— ما لي حيلة بامري.

— صلِّ والتمس من الله ان تكون بطلا، فتسيطر على نفسك وتقبض على ناصية اهوائك، فتصرف طاقاتك الى الله.

— اشعر بالعجز.

— زر الناسك بخوميوس في دير الحرف فيشفي سقمك.

— لست في وضع يسمح لي بالاقتراب من النساك.

— هم اقرب الناس اليك. هم يصلون من اجل امثالك. يبكون على امثالك. لا تتوهم ان الله بعيد عنك. انه يفتش عنك بحرارة. انت تشعر بالبعد، اما هو فينقضّ عليك باستمرار للظفر بك ولاغتنامك غنيمة ثمينة جدا.

— سأضع الأمر في حسابي. ولكن ليس في القريب العاجل. فالى اللقاء.

— اجلس.

— حان اوان الانصراف. الى اللقاء. شكرا

وغادر المكان يهيم متنزها، تتقاذفه الأفكار، وتتجاذبه شتى الأحلام. ما ان يثور ضميره حتى تطفو اهواؤه وطعم لذاته السابقة. الا أن الصراع دخل الان مرحلة التناحر الجدي. وصار ذكر الموت يلعب دورا ما في حدة الاصطدام.

أما توما فعاد الى الدير لينقل والدته الى بيروت.

ودار الحديث اثناء الطريق عن الموضوع المطروق لدى بخوميوس فابدت انسطاسيا اعجابها الشديد ببخوميوس وفهمه الروحي وتقواه، وشجعت توما على المضي قُدُماً.

وكان الامر مدارَ حديثهما مرارا طيلة الأسبوع، حتى بدا لبخوميوس ان امه صارت من المتحمسات لبخوميوس المعجبات بنهجه الروحي والنسكي واللاهوتي.

ويوم الأحد التالي امتطى سيارته بعد الظهر في اتجاه دير الحرف.

وكان يفكر خلال الاسبوع ان يطرح على بخوميوس استغرابه التسلطَ الضارب أطنابه الذي تمارسه أهواء سليمان فقرر في قرارة نفسه أن يلتمس صلوات بخوميوس من أجله.

الفصل الثاني والعشرون

زار بخوميوس، فوجد لديه كاسيانوس، ففرح فرحا عظيما.

وكان بخوميوس قد روى، باقتضاب، لكاسيانوس، تطور توما. وبعد المصافحة، التفت توما، وقال لبخوميوس:

— التمس منك بحرارة ان تصلي من أجل صديقي الضال سليمان؛ فانه دمية في خضم الصراع بين اللذات والعودة الى الله.

— سأصلي من اجله لكي يهديه الله.

— انعود الى موضوع المعموديّة؟

— بكل ترحاب. انتهينا من مرحلة الاعتراف بالثالوث. هل تعرف من هم المعترفون؟

— لا!

— هم الذين في وسط الضيق والاضطهاد يعترفون باسم الرب يسوع ولم يتمّ استشهادهم بالدم. هم شهوده بالاعتراف. بقي ان يجتاز الموعوظ مرحلة الاعتراف الى مرحلة الاستشهاد.

— هاتِ ما لديك.

— خدمة المعمودية منسوخة الى حد بعيد عن خدمة القداس الالهي. لذلك يرتدي الكاهن حلته، فيوقد الحاضرون الشموع، ويبخر حول جرن المعمودية، ثم يسجد، فيعلن: «مباركة هي مملكة الاب والابن والروح القدس...» كما في القداس. ويتلو طلبة رائعة. نحن في عيد فصح: نوقد الشموع اذن.

— ما احلى القول فيها: «من أجل أن يقدَّس هذا الماء بقوة الروح القدس وفعله، من أجل ان تنحدر على هذا الماء نعمة الفداء وبركة الاردن، ... من أجل ان يصير مغروسا ومشتركا في موت المسيح الهنا وقيامته، ... من أجل ان يصير له هذا الماء حميم اعادة الولادة لغفران الخطايا وسربال عدم الفساد».

— هذه العبارات تتكرر ايضا في الصلوات التالية. أرأيت ان الاعياد الكبرى تتكرر في المعمودية؟

— نعم !

— يتلو الكاهن صلاة من أجله ومن أجلك يطلب فيها تصوير المسيح فيك . ثم يتلو صلاة تذكر اعمال الله المجيدة الى ان تصل الى العمل المجيد المطلوب الآن ، الا وهو حلول الروح القدس : «اذن ايها الملك المحب البشر احضر الآن بحلول روح قدسك وقِدّس هذا الماء (ثلاثاً) وامنحه نعمة الفداء وبركة الاردن ...»

— ما أجمل هذه الصلاة !

— تتلوها تضرعاتٌ للتقديس وسحقِ القوات المضادة . فيرسم الكاهن باصابعه في ماء الجرن ، الصليب ثلاثا ، وينفخ فيه ثلاثا وهو يقول :

«لتنسحق تحت علامة رسم صليبك جميع القوات المضادة» .

فالشيطان يسكن الناس واليبس والماء . وتقديس الماء يتم بسحق القوات المضادة ، بالصليب وباستدرار الروح القدس . اما تذكر الاستقسامات التي تجري على الموعوظ قبل اعلان ايمانه بالمسيح؟ لا بد من التطهير والتقديس .

— فاذن : الماء يخضع لعملية استقسامات يعقبها التقديس ؟

— طبعا . فيعقب طردَ الشيطان ، القولُ : «... اظهر هذا الماء ماء الفداء ، ماء التقديس ، تطهيرا للجسد والروح ...» وباقي الطلبات الخاصة بمعاني السر الذي سيتم عليك . وهذا مشابه لخدمة القداس حيث كلام التقديس واستدرار الروح القدس . نستدر الروح القدس على الماء كما نستدره على القرابين في خدمة قداس باسيليوس الكبير . يجب ان نسجد انذاك .

— يأتي دور الزيت . لم افهم معنى الزيت تماما هنا .

— للزيت والزيتون في الكتاب المقدس قيمة هامة .

— هاتِ .

— حمامة اتت بغصن الزيتون لنوح علامة على نهاية الطوفان وتوقف الغضب

وانبرام السلام والمصالحة. والحمامة ترمز الى الروح القدس والسلام. وأنت ستتصالح مع الله وتدخل في سلم معه. وزيت السامري الشفوق بلسم شفاء ورحمة.

— وأيضا

— مسحة الملوك والكهنة في العهد القديم معروفة. فالذين يتم انتدابهم للمهمات يخضعون لمسحة. المزامير قال في يسوع: «لذلك مسحك الرب الهك بدهن...» نشيد الأناشيد تكلم عن أَدْهان يسوع عريس الكنيسة التي مُسِحَ بها. يعقوب الرسول علمنا أن يمسح الكهنةُ المرضى بزيت يشفي الأمراض ويمحو الخطايا. يسوع هو المسيح. المسيح هو الممسوح. لاهوته هو مسحة ناسوته. قديماً كانوا يمسحون المصارعين أيضاً. والسامري الشفيق صب زيتاً على الجريح.

— ماذا اجني منه؟

— الصلاة الخاصة بتقديس الزيت بحلول الروح القدس تُلْمِح الى هذه المعاني، دون تفصيل. فالمعمودية تخلصك من طوفان الخطيئة الذي هو اخطر من طوفان المياه. المعمودية فصح ينقلك من ارض الخطيئة الى ارض الميعاد، فيغرق ابليس فيها كما غرق فرعون ومركباته. قلت لك انها قيامة. وعيد القيامة هو فصحنا.

— وأيضاً.

— والمعمودية تنعشك وتجدد كيانك. فالزيت يبهج، وينعش. ويداوي جراحنا الروحية. الزيت كان قديما لإنارة البيوت. وأنت ستصبح نوراً. الزيت يجددك، يعيد خلقك. المعمودية هي رحمة من الله لا استحقاق. السامري الشفيق عدو اليهودي يرحمك لمجد اسمه لا لاستحقاقاتك. فأنت بالخطايا عدو لدود له.

— وأيضا

— بطرس الرسول علمنا اننا «بيت روحي... كهنوت مقدّس، لإصعاد ذبائح روحية، ... جيل مختار، كهنوت ملوكي، امة مقدسة، وشعب مقتنى... شعب الله... مرحومون». (الرسالة الأولى ٢ : ٥ — ١١)

— هل المعمودية تنصيب ملك وكاهن ايضاً ؟

— نعم ! نصّ بطرس واضح. ستصبح عضوا في مملكة سليل داود الذي هو كاهننا الاعظم على رتبة ملكيصاداق.

— وكيف اكون ملكا وكاهنا؟

— يسوع هو ملك الملوك ورب الارباب من نسل داود ويهوذا الملكي. وأنت عضو في جسده تملك معه الى الأبد. اما قرأت في الفصل **٢٥** من متى كيف يدعونا معه في اليوم الاخير لنرث الملك المعد لنا؟ اما قال بولس اننا ورثة معه؟ نحن وارثو الملكوت معه، نحن مشاركون في ملكيته وكهنوته. نحن امته المقدسة. نحن الشعب الذي اقتناه بدمه.

— وكهنوتي ؟

— كما أن الملكية لم تعد محصورة بفرد من نسل داود ويهوذا بل شملت كل المعتمدين الان، كذلك لم يعد الكهنوت محصورا بنسل هارون ولاوي.

— المسيح كاهن على رتبة ملكيصاداق.

— نعم ! تحول الكهنوت. كاهننا هو ملكيصاداق الجديد أي يسوع. كهنوتنا لا يقوم على ذبائح الثيران والكباش والمعز.

— ما نوعه؟

— كهنوتنا روحي. ذبيحتنا روحية. كل مسيحي هو كاهن يصعد الذبائح الروحية.

— ما الخدم التي يستطيع أن يقوم بها؟

— يستطيع أن يعمد: أما الميرون والقربان وسواهما فشأن الكهنة والأساقفة.

— وماذا بعد؟

— هو بالدرجة الأولى كاهن يقدم نفسه والآخرين ذبائح لله.

إليك ما قاله بولس في رومية : «فأحرضكم أن تقربوا أجسادكم ذبيحة حية ، مقدسة ، مرضية لله ؛ تلك هي العبادة التي يقتضيها العقل منكم...» (١٢ : ٢١) ، وما جاء في العبرانيين : «... ليقدس الشعب بدمه الخاص... ولنقربْ به لله ذبيحة الحمد في كل حين ، ثمرة شفاه تعترف باسمه».

— صلواتنا قرابين إذن؟

— نعم ! كل ما يفعله المسيحي في الروح القدس هو قربان. عندما يتوجه الى الله بطهارة ، الروح القدس الساكن فيه هو الذي يقربه ذبيحة زكية. حياة المسيحي كلها نسيج من الذبائح. حينما يقهر الأهواء ويسيطر على الحواس والشهوات يذبح نفسه لله ، يحمل مع بولس سمات الرب يسوع ، يصلب نفسَه عن العالم ، ويصلب العالمَ لذاته. الاعتراف باسمه ثمرتُه ذبيحةُ حمدٍ كما رأيت.

— حياتنا هي إذن عملية صلب متواصلة؟

— ألم يقل يسوع : «من لا يحمل صليبه ويتبعني...؟

— الصليب هو إذن سر الحياة؟

— هذا كبد الحقيقة. الصليب جزء لا يتجزأ من كل ذرات كيان المسيحي الحقيقي. هو في فكره ، في لسانه ، في حركاته ، في تصرفاته ، المعمودية تصبغنا بالمسيح. هو صبغتنا. دمه يمنحنا لوناً قرمزياً ، ناري الأسهم ، فائق اللمعان. يا لعجائب الله التي لا تدرك ! هو قال ان موته صبغة أي معمودية.

وأكبّ بخوميوس على وجهه في ذهول ، فسجد توما مراعياً الصمت التام حتى أفاق بخوميوس من تأملاته العلوية ، وجلس مكانه. واستمرّ الصمت قليلاً حتى قطعه بخوميوس ليخفي ذهوله بدم يسوع ، فقال :

— ما تطرقنا بعد الى دور هذه المسحة البطولي.

— اروِ عطشي ، إشفِ سقمي.

— الصلاة على الزيت نفسها تلتمس أن يكون سلاحاً للبر. فمفهوم النضال

واضح فيها. فأنت ستمسح كبطل محارب، كمصارع يدخل حلبة الجهاد بل الاستشهاد. أتى الآن دور الانتقال من المعترف الى الشهيد في المعمودية سيتم مسحك شهيداً لتحارب بأسلحة البر عن اليمين هجوماً وعن اليسار دفاعاً، على ما علمنا بولس. لا تقف متفرجاً بل حارب بسيف الروح ومحبته.

— تابع.

— يصب الكاهن قليلاً من الزيت بشكل صليب على ماء الجرن، بينما يكون الحاضرون في حالة انتباه وإصغاء. ويرتل الكاهن والشعب ثلاثاً «هللويا».

— لماذا «هللويا» الآن؟

— اللفظة عبرية. تعني «هللوا للرب». هي لفظة فرح ونصر. افتح سفر رؤيا يوحنا واقرأ على مسمعي الأعداد ٢١ الى ٢٤ من الفصل ١٨ و١ الى ٩ من الفصل ١٩.

تلاها توما فعلّق بخوميوس:

— أما رأيت أن سقوط بابل الزانية انتزع في السماء تسبيحاً لله تخللته لفظة «هللويا» ٤ مرات؟ أو ما سمعت قيام ملْك الرب الإله عقب ذلك، واعتلانَ عرس الخروف والكنيسة؟

— القرابة متينة جداً بين هذا النص وخدمة الزيت هذه.

— نعم! يتم قهر مملكة إبليس المتمثلة في بابل الزانية، واعتلان مملكة الله وعرس الخروف. فالمعمودية فرح أعظم وعرس ملوكي بين الله والنفس.

— وأيضاً.

— بعد الترنيم يقول الكاهن: «تبارك الله الذي ينير ويقدس كل إنسان آت الى العالم». فالكاهن ينضم الى الجوق السماوي ثانية بعبارة المباركة لله الذي سيمنحك أنت الآتي الى العالم الجديد، الإنارة والتقديس. أنت تلد من جديد.

— هذه المعاني تتضح في مسح المعمود أيضاً.

— أجدتَ. هاتِ! الآن دورك.

— اعتذر تاركاً الكلام لك. فأنا موعوظ يتفلسف. فاغفر لي.

— على جبهتك سيمسحك الكاهن بشكل صليب وهو يقول: «يُمسح عبدُ الله توما بزيت الابتهاج على اسم الآب والابن والروح القدس. آمين!» فمعنى الفرح واضح إذن كل الوضوح. والصليب نفسه نصر. ويسوع اعتبر آلامه على الصليب مجداً. أما كان أجدادنا القدماء يبتهجون بنور مصباح الزيت؟ «والحياة نور الناس».

— والصدر والظهر؟

— «لشفاء النفس والجسد». فإن لم تكن سليم النفس والجسد، فكيف تستطيع أن تصارع القوى الشريرة على ما ذكر بولس في الفصل ٦ من أفسس؟

— والأذنان؟

— «لسماع الايمان». فإن لم تكن مطواعاً للانجيل، لكلام الايمان، فكيف تستطيع أن تتمرس بقوانين المصارعة؟ سيف الروح هو كلمة الله لدى بولس.

— اليدان؟

— «يداك صنعتاني وجبلتاني». المعمودية تصنعك، تجبلك. فيها الآب السماوي يعيد صنعك وتكوينك باليدين الصادرتين منه أي الابن والروح القدس.

— والرجلان؟

— «ليسلك في سبلك يا رب». هذا دعاء هام. نهاية المطاف هي تجلّي يسوع في سلوكك، في حركاتك، في تصرفاتك. الرجل هي عنصر الحركة الأقوى فينا: المشلول الرجلين عاجز. مسحُ رجليك يعني تشددهما في العمل والتحرك في سبيل الله التي لا يحدّها عقل. الحي روحياً حركة دائبة نحو الله. المشلول روحياً جسد بلا روح مهما صخب خارجياً. بهذا تتجدد وتتقلد أسلحة الفصل ٦ من أفسس.

— لماذا كل هذا التشديد القاطع على المصارعة والبطولة؟

— لم تقرأ بعد تاريخ الاضطهادات المتعدد الأجزاء. مع العلم أن هذا ما قد كتب. أما ما لم يكتب فهو أضعاف أضعاف المكتوب. المعمودية أفرخت جحافل الشهداء والأبرار الذين احتقروا الموت والمشانق وأتونات النار، وبرك الكلس، والسيف والحديد، والنار، وأفواه الوحوش الضارية، وسائر ما تفنن الانسان في اختراعه من ألوان العذاب.

— هذا قديم.

— وفي العصور الحديثة الشهداء جحافل لم تُكتَبْ بعد سيرهم كاملة. المعمودية هي التي دفعت الناس في القرن الرابع الى النقمة على انتهاء عهود الاضطهاد، فداسوا رخاء العيش ورخاوة الجسم، وطاروا الى البراري يعيشون شهداء، آناء الليل والنهار، لتذوي رغبات الجسد، وينبعث المسيح في أجسام ربَّاها الصوم والنسك على التحرر من ربقة الاستمتاع بالآثام الى حرية الاستمتاع بالروح القدس.

— بلادنا مقفرة من الصوم والنسك والنساك والشهداء، بينما جعل يسوع الصومَ أداة لقهر أقوى الشياطين.

— غياب الصوم — الذي هو خير مدخل للصلاة البارة — جعل التقوى زيفاً وقشوراً ومظاهر. الصوم الحقيقي إذلال لرقاب المتكبرين. الكبرياء أولى الخطايا. فإذا كنا لا نناضل ضد أولى الخطايا، يعني أننا ما خطونا بعد خطوة صحيحة في الحياة الروحية. فلا تستغرب أن تكون الكبرياء طاعوناً فتاكاً في بلد هجر فيه الناس الصوم متعالين بل محتقرين له. الكبرياء هي الخطيئة الخاصة بالشيطان.

كاسيانوس — لم تتركا لي دوراً.

بخوميوس — تفضل.

— لم أعرف أحداً استشهد من أجل المسيح. فالرياء قالب الجميع. ويتنكر الناس للحقيقة بسهولة ويقولون لغرض في النفس أو تملقاً للغير، إن الخيرَ شر والشرَّ خير، والحقَ باطل والباطلَ حق، والصدقَ كذب والكذبَ صدق.

— هذا أمر نفخ صدري عبثاً. مهما حاولنا أن نجسّد الحقيقة جماعياً فسنفشل، لأن يسوع يتجلى في الشخص لا في مجتمع. فلنكن قدوة للآخرين. لنهتم بأنفسنا أولاً. فمن لا يبنِ بيته فلا يصلح لبنيان بيوت الآخرين.

— هل عرفت في حياتك شهيداً حقيقياً عاش الحقيقة؟

— نعم.

— من هو؟

— القديس الشهيد الخوري حبيب خشه الذي عاش المحبة، والطهارة بأعمق معانيها. وكان يصلي لله لكي يموت شهيداً مثل أبيه. فنال في ١٦ تموز ١٩٤٨ من ألوان العذاب ما لا تستطيع الأذن سماع روايته.

— لماذا؟

— لأن قاتليه نكلوا به أبشع ألوان التنكيل حتى لم يبقَ منه عضو أو عظم سليماً. تهشيم جسمه كان كاملاً.

— هل تملك صورته؟

— نعم.

— أرِنها.

— اليكها.

— هوذا إنسان انتصر على الرخاوة بل الأنانية أيضاً والانطواء على الذات.

— الأرض تحتاج الى جحافل من أنداده، لنقصي الشيطان ونبارك الأرض بدمائهم الزكية.

— أنت عدو أنصاف الحلول.

— ما أنا عدوها. يسوع هو عدوها. الله هو الذي رفض امتزاج البر بالإثم، وتعامل المسيح مع بليعال. لا شركة للمسيح مع بليعال.

— أنت لا ترثي لضعفنا.

— أنا الذي يمسح جراحك ودموعك بفلذات كبده. فدتك روحي.

— حفظ الله لنا روحك وأبقاها.

— يا توما! من الضروري أن تستعدَّ للمعمودية بالصوم والصلاة قبل اعتمادك.

— ما عدد الأيام؟

— تبدأ في ٢١ تموز. ثم عليك أن تعترف اعترافاً دقيقاً بخطاياك قبل الاعتماد، بعد استعداد كبير. في ٢١ تموز عيد سمعان ويوحنا المجنونين لأجل المسيح.

— هذه مهمتك. ستتولى تدريبي على الاعتراف. وسرني أن أبدأ الصوم في عيد مجنونين روحياً.

— ستكون في عطلة جامعية في ذلك الحين.

— نعم!

— تدبر أمر قضاء الوقت في الدير. وطالع في العهد الجديد بتمعن. وأمسك ورقة وقلماً ودوِّن النصوص الخاصة بحياتنا الأخلاقية، لتفحص ماضيك على ضوئها. أما الآن فقد حان أوان الأنصراف. عودا متى شئتما. فأهلاً وسهلاً بكما دوماً.

فانصرفا مغتبطين. فعرض توما على كاسيانوس أن يقضي الليل في الدير، فقبل وهو بالغ الاغتباط بما سمع.

سأل كاسيانوس رئيس الدير عن مؤلفات شفيعه، فأعطاه لمحة عنها. فطلب أن يراها ويطالع فيها أثناء الليل. فكان له ما أراد. وتناولها توما أيضاً فلفت نظره منها البحث الخاص بالرذائل. فحرص على مطالعته قبل اعتماده. والتمس من رئيس الدير أن يرشده الى الكتب التي تساعده على أداء اعتراف كامل بالخطايا قدر المستطاع. فنصحه بمطالعة خدمة المطاليسي وكتاب سلم الفضائل للقديس يوحنا السلمي. وأودع هذه جميعاً في غرفة توما.

وعادا في الصباح الى بيروت. فصرّف توما أعماله وانطلق الى المطبعة ليؤمن بسرعة ثلاثة آلاف نسخة من خدمة المعمودية على الأوفسيت. فتم الاتفاق على طبعها وتسلمها في ٣١ تموز.

الفصل الثالث والعشرون

في بيت توما لم تترك النعمة الإلهية أحداً بلا تحرك. فيونان الرافض سابقاً باسم العلم، شرع يتمخّض ليرى في العلم سلماً الى السماء. إلا أن برودة عقل العلماء والتقدم في العمر عرقلا تسارع خطواته. ومع هذا صار يؤثر أن يتطارح مع زوجته الأحاديث عن مصير الانسان بعد الموت، وعن ظلام القبر، وبؤس الانسان. فسألها مرة:

— انسطاسيا! ما معنى الوجود كله إن كانت عقول العلماء الجبارة تذوي مثل أوراق الخريف؟ لماذا يقضون الحياة في شقاء تحصيل العلم بكد وإرهاق؟ إن لم يكن لنا خلود بعد الموت فالخير كل الخير في عدم الوجود لا في الوجود. وجودنا صليب قاسٍ. إن كان بلا رجاء خلود، فالفناء خير من البقاء.

— التفلسف لوحده لا يسد الثلمات جميعاً. طالع الانجيل.

— أريد أن أحلّ الأمور بدون الانجيل أولاً.

— ستضيع الباقي من عمرك في البحث كما يضيع الماجنون عمرهم في المجون، مؤجلين التوبة الى ساعة الموت، فيدركهم الموت قبل التوبة.

— كيف تضعيني في رتبة الماجنين؟

— «الجنون فنون» كما يقول الناس. الماجنون مجانين أضاعوا الرشد، فخسروا السماء. وأنت عالم تضيع الوقت في التحليل كأنه هواية بل غواية. الحقيقة هي في متناول يدك. الانجيل في بيتك. طالعه واهتدِ سريعاً بدلاً من سبر أعماق المحيطات دون دراية بفن سبرها.

— أببساطة كهذه تختصرين الطريق؟

— أنا امرأة: أفهم بحدسي أكثر مما أفهم بعقلي. وأنت رجل: تود عقلنة الأمور وهي غير قابلة للعقلنة التامة.

— لله در هذا الجواب! سأبدل، قدر المستطاع، أسلوب تفكيري الديني.

— ودخلت نعماء آنذاك، فسمعت جوابه الأخير. فقالت:

— هل هدتك أمي؟

— لم تهدني بل غيرت أسلوب تفكيري.

— أبهذه السرعة تبدلت؟

— الحقيقة تفعل في الانسان الشريف أكثر من الكي. تسمه سمة قاطعة.

— ولكن أمي وأخي عجزا عن جذبي اليهما جذباً كاملاً.

— طال رفضي. وها هو يذوب شيئاً فشيئاً.

— ما بالكم جميعاً تنجرفون وراء توما؟

— إن كان في موقفه حق فليكشف الله لنا هذا الحق.

— أنا خارجة في أمر.

وبعد خروجها التفتت انسطاسيا الى يونان، فقالت له:

— عدم اتفاق مشاربك ومشاربي جعل طباع كل واحد في البيت تختلف عن طباع الآخرين.

— هذا أفضل من أن نكون مثل الصنم.

— وهل هذا التباين الشاسع أفضل؟

— مسألة الدين في البيت مسألة بالغة الخطورة. لم أنتبه اليها سابقاً. التنازع على الايمان ينعكس على الأولاد في شتى الاتجاهات المتضاربة.

— ويجعلهم يفقدون الأساس المتين لرابطة هي أقوى روابط الكون: الايمان

العامل في المحبة — كما علم بولس الرسول — مغناطيس لتجاذب سكان البيت الواحد.

— على كل حال، تدبري الأمور بحكمتك ريثما أعدّل طرائق تفكيري. فإني أوافقك على حاجة منزلنا الى الانسجام على الأقل.

أما توما فكان ينشط باعتدال في ميدان مطالعة الكتب الدينية المطلوبة منه، وفي حقل جذب الزملاء والمعارف الى الاهتمام بالأمور الدينية. وأخذ نجمه يلمع يوماً بعد يوم في وسطهم كشاهد نشيط ليسوع المسيح، ومذكراً من طالع سفر أعمال الرسل منهم بانقلاب حياة بولس على أبواب دمشق.

وكانوا يجهلون وجود بخوميوس. فصاروا يسمعون باسمه، ويهتمون بتنسم أخباره والتفكير في زيارته. ووقع خوف إلهي على قلوب نفر من السامعين لأحاديث توما. إلا أن الفتور العام وبرودة المشاعر الدينية والانغماس في الملذات وقفت حجارة عثرة في وجه الرجوع الصادق الى الله. ومع هذا لم تفتر همة توما، بل ازداد يقيناً بأن تعاظم دولة إبليس يتطلب من أهل العقيدة الصادقين أن يضاعفوا الجهود لإسقاطها. وكان يقول في نفسه:

المسيح أقوى من الجحيم، أقوى من الشيطان، أقوى من الفتور، أقوى من الأهواء. هو الغالب أبداً.

وحالت أعماله دون الذهاب الى دير الحرف يوم الجمعة، فذهب وكاسيانوس السبت، فقصدا بخوميوس رأساً، فأكرم وفادتهما. قال توما:

— حان لنا أن ننهي شرح طقس السر، لأشغلك في اعترافاتي المتواصلة. فإن رئيس الدير أراني كتب كاسيانوس وسلم الفضائل وخدمة المطالبسي. أرى فيها نبراساً أضيفه الى العهد الجديد للكشف عن قعر زلاتي في توبة نصوح.

— أجاب رئيس الدير. فلنبدأ الشرح: يوجه الكاهنُ المعمودَ (إن كان طفلاً) نحو الشرق، ويغطّسه في الماء. أما الكبير فتغطيسه خارج الأنهار مستحيل. نستعمل له آنية كبيرة. الشائع عندنا هو ضرورة تعميد الأطفال هكذا:

١ — يغطس الكاهن بسرعة الطفل وهو يقول : يُعَمَّد عبدُ الله فلان باسم الآب . آمين !

٢ — يخرجه ويغطّسه ثانية وهو يقول : والابن آمين !

٣ — يخرجه ويغطّسه ثالثة وهو يقول : والروح القدس . آمين !

٤ — يغسل الكاهن يديه وهو يرتل مع الشعب الحاضر المزمور ٣١ : « طوبى للذين غفرت ذنوبهم والذين سترت خطاياهم ... »

— ما معنى كل هذا ؟

— يتم السر بذكر الثالوث القدوس ، فيغفر الله ذنوبك ويستر خطاياك ، ويتحقق فيك جميع ما ذكرنا سابقاً .

— هذه هي اللحظة الحاسمة إذن ؟

— وكل ما سبقها استعداد لها .

— كم هي لحظة بالغة الخطورة والأهمية !

— هي ساعة الحسم في حياة الانسان .

— يجب أن يكون الموقف رهيباً بينما أرى الناس مستهترين بهذه اللحظة .

— يوم اعتمادك سنفرض الصمت التام ، ونعلِّم الناسَ أن يركعوا أثناء التغطيس . أضف الى الكراسة حاشية عن ضرورة السجود أثناءه .

— بعد الاعتماد سألبس سربالاً أبيض باسم الثالوث .

— ونرتل لك : « امنحني سربالاً منيراً أيها المرتدي النور مثل الثوب . أيها المسيح ... » وفي الكنيسة الروسية يُعلَّق للمعتمد صليب للدلالة على حمل الصليب وراء يسوع .

— معنى التجلي واضح هنا . وفي تعليق الصليب المعنى واضح .

— حتى في المزمور ١٠٣ نقول في الله انه لابس النور مثل الثوب . ولكن هنا نذكر المسيح تخصيصاً ، فيعود معنى التجلي وارداً وواضحاً .

— والميرون المقدس الآن؟

— بعد المعمودية ينال المرء الروح القدس. ولكن الكلام عن الروح القدس وأفعاله مؤجل كما قلنا سابقاً.

فالمعمودية تمنحك الوجود في يسوع. أما الميرون المقدس فيمنحك الروح القدس. فكل جسم ذو قوة حياتية للنمو. الروح القدس هو هذه القوة التي تنميك في يسوع حتى تنتقل من طفل في يسوع الى إنسان كامل في يسوع، يلمع أكثر من الشمس، في البر والقداسة.

— فإذن بعد المعمودية نحيا في الروح القدس.

— بالأحرى ننمو في يسوع بفعل الروح القدس. الوجود الذي نلناه في المعمودية يأخذ أبعاده الشاسعة في النمو بفعل الروح القدس.

— بعد الاعتماد حل الروح القدس على يسوع واقتاده الى البرية، ونحن ننال الروح القدس بعد اعتمادنا ليقودنا في برية هذا العمر محاطين بالأفاعي الروحية وغير الروحية. فما جرى على المسيح يجري علينا. نصبح كالمسيح. كيرلس الأورشليمي قال إن يسوع هو «المسيح» وإننا نحن «المسحاء». هو «مسيح» وأنا «مسيح» أيضاً. مسحة الميرون جعلتني مسيحاً. لا أستطيع أن أستفيض في الكلام فإن هذا السر يوقعني في إغماء.

— يضحي الروح القدس موتور (محرك) حياتنا. فيه نحيا كما حلا لك أن تقول. ويدهن الكاهن بالميرون أنحاء الجسم خاتماً إياها بالروح القدس، ليتصرف برمته في الروح القدس، فيعود بصره وسمعه وشمه، وفمه ويداه ورجلاه، رأسه وصدره (الذي يضم رئتيه وقلبه) أدوات للروح القدس لا للخطيئة، تعود ذبائح لله مقدسة. المعمودية والميرون المقدس ينسفان في النهاية حتى استعداداتنا للخطيئة لنستعيد ملء طهارة الصورة الإلهية وقد تلألأت بفيضانات الأنوار الثالوثية.

— يتراءى لي ان الله يصبح جزءاً منا.

— بالاماس تكلم عن تركيبنا الثلاثي فجعلنا مؤلفين من النعمة والنفس والجسد بعد المعمودية.

— قصة كهنوتنا العام وتقريبنا أجسادنا وأخواننا ذبائح مسألتان هامتان.

— بل بالغتا الأهمية. وظيفتنا الكهنوتية هذه تمتزج بوظيفة يسوع رئيس الكهنة الأعظم. هو الرئيس ونحن كهنته. قرب ذاته بروح أزلي للآب. وتقديمه نفسه ذبيحة هو مجده. الذهبي الفم فسر كلامه عن تمجيد الآب له بأن مجده هو آلامه. ومجدنا نحن هو تقريب أنفسنا قرابين، ذبائح على مذبح النعمة. الصليب مجد لا ذل وهوان، لأنه أعمق تعبير عن بذل الله ابنه الوحيد لأجلنا.

— ما علاقة تقريبنا أنفسنا واخواننا بذبيحة الصليب؟

— إن قرَّبنا أنفسنا ذبائح روحية في كل ثانية من ثواني العمر امتزجت ذبيحتنا بذبيحة يسوع كل حين. ذبيحتنا امتداد لذبيحة يسوع. نحن فيه وفي روحه القدس نُضَحّي قرابين مقبولة لدى الله.

— فاضت نفسي من شحم هذا الطعام الدسم.

— فلنعد الى السياق.

— عد.

— بعد هذا يأتي دور الرسائل والانجيل، كأن الخدمة قريبة من قداس. الموعوظين.

— بعد الميرون، سنتناول القربان المقدس. قداس المؤمنين خاص بالقربان عادة ليتم تقديس الخبز والخمر فيتناولها المؤمنون. لذلك جاء كل شيء كأنه منسوخ عن قداس الموعوظين تقريباً. فاحتفظت المناولة بموقعها كأنها قداس مؤمنين كامل.

— لفت نظري بعد تغسيل المعمود ومسح جسمه حفلةُ قص الشعر. ما معناها؟

— في العهد القديم كان يتم قص شعر النذير. والمعمود نذير للرب.

— ماذا يعني ذلك؟

— من نذر شيئاً للرب اقتطعه من ماله، وقدَّمه للرب. وإن كان ابناً أخرجتَه من حوزتك وقرَّبته للرب. النذر هو التكريس. المعمود هو منذور، مكرس للرب. خرج من حوزة أهله، من حوزة نفسه، وصار ملكاً لله خالصاً. طالع الصفحة ١٢٣ من كتاب «يهوه أم يسوع».

— في النتيجة كل ما يجري هو استبدال. يتم استبدال انساني المتعفن في الجرائم بيسوع.

— وتأتي مناولتك خاتمة المطاف. فلا المعمودية ولا الميرون يقيانك شر الإرتطام مجدداً بالآثام. فجسمك النامي يحتاج الى الغذاء. القربان هو غذاؤك المضاعف: ١— يغفر خطاياك. ٢— يغذي حياتك لتنمو في الروح القدس الى ملء قامة المسيح.

— أجبني بصراحة مطلقة.

— سل أجِبْكَ.

— هذه المحبة البارزة في المعمودية والميرون والمناولة لإنسان مثلي لا يستحق أن يكون، بسبب خطاياه، حتى هباءً منثوراً، أما تستدعي أن ينقلب المرء الى مجنون في محبة يسوع؟

— الآباء علموني أن لا أحسب شيئاً نهائياً قبل لحظة الوفاة.

— ماذا تعني؟

— قد تتحول الآن الى مجنون، لتنقلب فيما بعد الى تافه. المهم هو الصمود حتى لحظة إيداع الروح بين يدي يسوع.

— ألا تثق بأني سأصمد؟

— أثق بيسوع القادر على حفظك صامداً.

— ما دمت سأكون نذيراً ليسوع فهل يتخلى عن نذيره؟

— إلا إذا انقلب النذير وخان العهد.

— ما تعودت أن أخون.

— الشيطان غدار.

— وإن غدر بي؟

— فتبْ سريعاً وعدْ الى أصالتك. لا تستحي أبداً من الرجوع فوراً وعلناً عن أي خطإ ترتكبه أو خطيئة تجترمها. التمادي في الخطيئة هو الضلال بعينه. الذهبي الفم علّمنا أن الانسان ضعيف لذا يرتكب الخطايا، وأن الشر كل الشر لا يكمن في ارتكابه الخطايا بل في تماديه في الخطايا وإصراره عليها.

— لله در الذهبي! فإذنْ: لنا دوماً رجاء العودة الى الله.

— الباب مفتوح على مصراعيه. ولكن إياك والتمسكَ قيدَ شعرة بأي خطإ أو خطيئة. لا تدافع عن نفسك ولا تبذل أي جهد لتبريرها بل بالأحرى شنّ عليها فوراً وعلناً حرباً ضروساً.

كاسيانوس — الشاعر الفرنسي لافونتين هزىء من الذين يجعلون عيوب الآخرين أمام عيونهم وعيوبهم وراء ظهورهم.

بخوميوس — سبقه المسيح الى ذلك في مثل الخشبة والقذى. وعليه الآباء.

كاسيانوس — كبرياؤنا تدفعنا الى تبرير كل نقائصنا.

بخوميوس — سندوسها ونطحنها طحناً بمجهر تنقيبنا عن نقائصنا، لنفضحها فضحاً ونشهرها شهراً. حربنا مع تبرير العيوب حرب ضروس لا هوادة فيها. وسنطحن بذلك كبرياءنا أيضاً.

— لغتك لغة أبطال.

— لست أنا البطل بل يسوع الذي جنّدني، فكان سلاحي وكل شيء في المعركة.

— صلّ من أجل ضعفنا. فقد نخرتنا الآثام كما ينخر السوس الخشب بل الورق.

— فلنصلِّ من أجل بعضنا بعضاً.

توما — نستودعك الله. ونشكره على ما تعلمناه على يديك.

— الحمد والشكر ليسوع الذي شرَّفني بخدمتكما.

— استودعنا الله وصلِّ من أجلنا دوماً بلا انقطاع.

وعادا الى الدير مأخوذين. وقضيا الليل في المطالعة والصلاة. وحضر توما في الصباح قداس الموعوظين وحضر كاسيانوس القداس كله.

وبعد القداس قال توما لكاسيانوس:

— أظن أننا أرهقنا بخوميوس جداً. فالرجل ناسك نذر الصمت. ونحن نخرجه عن صمته. دعنا نقضِ النهار في التنزه والأحاديث الدينية والمطالعة. ثم نعود اليه قبيل الغروب.

فتجولا في مناطق الصنوبر المجاورة تارة بالسيارة وتارة جرياً على الأقدام. ثم انتقلا الى عين الصحة للغداء هناك بعيداً عن ضوضاء الأماكن الأخرى.

وتنشقا الهواء العليل في كل مكان ترجلا فيه. ووقفا في عين الصحة يمجدان الله رافعي الرأس، ومنتفخي الصدر إعجاباً، ومحركي اليدين الى فوق دهشاً.

وبعدما سبحا بما فيه الكفاية صامتين، جلسا الى طاولة يطالع توما كتاب سلم الفضائل، ويطالع كاسيانوس كتاب سميه.

وقطع كاسيانوس الصمت، فقال:

— دعنا نتبادل الكتابين.

تبادلاهما. ولما حان وقت الطعام نادى كاسيانوس الخادم ليوصي على الطعام. فقاطعه توما مطالباً بأن يتولى هو دفع الثمن. فانتهره كاسيانوس وقال:

— أنت اليوم ضيف الكنيسة كلها. فهل يليق بها أن ندعك تدفع؟

— أنا غريق أفضالها. فأنا إذن أحق منك بتسديد الفاتورة.

— لا ! أنت ابننا الضال العائد الى أبيه السماوي. من واجبنا أن نذبح لك العجل المسمن.

— أعييتني الآن عن الجواب. تصرف كما تشاء.

تناولا الطعام، وشكرا الله في البدء والنهاية. وأثناء تناوله نصح كاسيانوس توما بمطالعة كتاب كاسيانوس أولاً لأنه أسهل تعبيراً وأخف مادة. فوعهده خيراً.

وبعد الطعام استعرضا الماضي ومخازيه وشجبا العيش البهيمي الذي يتمرغ الانسان فيه تمرغ الخنزيرة في الحمأة. وتدارسا القضاء على الفتور الديني المتفشي في الأوساط. فلم يجدا الى ذلك سبيلاً. فقال كاسيانوس:

— طالعت سِيَر القديسين فوجدتها مآثر تبعث في النفوس بطولة. فإن لم يقم فينا قديسون يكهربوننا كهربة بالتقوى فعبثاً نتعب. يتنطس أحياناً أناس للوعظ، فأكاد أتقيأ أمعائي. أين حرارة بطرس وبولس وأبّولس والذهبي الفم وأندادهم في كل جيل؟ في العنصرة هبّت الرياح العاصفة، فهدت الآلاف الى يسوع.

— الروح القدس هو الروح القدس بعينه أمس واليوم وغداً.

— الذهبي الفم قال إن كل الزمان بعد العنصرة هو عنصرة. ولكن ما العمل إذا كانت النفوس قد «تَمَسَّحَتْ» وأطفأت الروح القدس؟

— هل نعجز يوماً عن تأسيس جماعة من اثني عشر شخصاً يعيدون سيرة الرسل؟

— ما دام التزييف والتزيّف هما سدى الناس ولحمتهم، فلن تجد إلا أمثال سيمون الساحر. ما أكثر السحرة والمشعبذين !

— لا تتشاءم.

— لست متشائماً. وإنما أكره الالتواء والتلوّن كأبي براقش. النفس الملتوية هي نفس خرجت على أصلها. والانسان الذي يفقد أصله يصبح بلا أصل. فأفهمْ ما نقصد بهذه العبارة في اللغة العامية. الالتواء يشوّه النفس أبشع تشويه. أين الاستقامة في حياتنا والصلابة في أخلاقنا؟

— الاستقامة والصدق مفقودان. والانتهازية ديدن الجميع.

— والنبل والشرف مفقودان كذلك. لم نعد نحترم القِيمَ ونبلَ النفس.

— ولا إنقاذ إلا بالله.

— فالصلاة الصلاة لكي يرسل الله رعاة صالحين الى كرمه الذي أفسدته الذئاب والثعالب الصغيرة.

— طفح الكيل. تسبيح الله خير من هذا كله. الإصلاح الجذري مستحيل. الله وحده قادر عليه.

— سبحانه، جل جلاله.

— في النتيجة، المسيحي وحيد في الدنيا. يعيش يسوعه لوحده بين متفرجين ومهرجين ومستهزئين ومزيّفين.

— وأكثر هؤلاء إيقاعاً للأسى في النفس؟

— المهرجون. هؤلاء يزيفون كل شيء وينكّرونه. تصطدم بهم في كل مكان. ليس لهم من التقوى حتى صورتها. بولس تحدث عن أناس لهم صورة التقوى لا قوتها وعمقها. المهرجون مسّاخون يمسخون التقوى والقيم ويدّعون أنهم مصلحون، إلا أنهم هم المفسدون.

— أعدنا الى التسبيح. فإن نظرنا الى الناس غرقنا مثل بطرس وإن نظرنا الى يسوع اجتزنا الماء والنار ونجونا. فأنا في حاجة الى التعميق لا إلى الطفو على وجه الماء. كاسيانوس والسلمي كفيلان بفضح خفايا قلبي وعشوش الشيطان فيَّ.

— دكّها دكاً في اعترافك بخطاياك وتوبتك.

— التوبة خير مدماك أدعم به بنيان معموديتي.

— طبعاً! هي علامة التبدل الجذري.

— من يتولّى تقبُّلَ اعترافك؟

— أظن أن بخوميوس صالح لذلك.

— محادثات كاسيانوس جرت مع أمثاله. فالنساك خبراء بالنفس البشرية.

— الأفضل، إذن، أن أعرض نفسي عليه، ليساعدني على فضح الخفايا جميعاً، ومعرفة أحوالي تماماً. كشف الذات للآخرين يعوِّدها على فضح شرورها.

— بهذا تسلك في النور. المعمدان عرَّف الناس. يعقوب الرسول أوصى بالاعتراف.

— كان الله نوري.

— ونورَ الجميع.

— أما تعود الى الدير، فإني محتاج الى الصمت والراحة؟

— إن كان كلامي يزعج صمتك فلأصمتْ مثلك. وإن كانت نفسك تود الراحة فقم ننطلق.

— نبقى هنا صامتين. ثم نعود بعد حين.

فصمتنا وانصرف كل الى اهتماماته، يلقي بنظرات حيناً الى كتابه ليطالع مقاطع. ولاحظ كاسيانوس تمتمة توما، فانصرف الى تمتمة الصلاة.

وطاب المقام والصلاة في الفلاة مما ذكر أحدهما الآخر بالعودة. وغلبهما النعاس فاتكأ كل على كرسيه ينال قسطاً من السبات. فأفاقا، نشيطين وآثرا البقاء في الهواء الطلق العليل حتى مالت الشمس قليلاً نحو الغروب.

مرا عليه، فوجداه مشتاقاً اليهما يرحب بهما.

عرض عليه توما أن يتولى شيئاً فشيئاً تدريبه روحياً على الاعتراف. فقبل ذلك بفرح كبير وقال:

— من ناحية التعليم اللاهوتي فزت بحظ وافر. بقي التدريب الروحي على الاعتراف بالزلات واقتناء الفضائل. سنخصص الوقت الباقي حتى ٦ آب لهذا الغرض.

— هل تود أن أدوّن اعترافاتي؟

— لا مانع من ذلك. ولكن الحديث الشفوي أكثر انطلاقاً من القيود، والرقابة، والحذف عمداً أو بلا عمد.

— سأعتمد عليك.

كاسيانوس— بعد اعتماد توما، سأتدرب لديك.

بخوميوس— على الرحب والسعة. يسوع قال إن فرحاً عظيماً يقوم في السماء بخاطىء يتوب.

توما— ألهذا تتخذ المعمودية هذا الطابع الكبير من الفرح، فيتم إشعال الشموع كأننا في عيد الفصح أو وليمة ملوكية؟

— نعم نعم! السماء والأرض تهللان للمعمود. الملائكة يشتركون في الفرح الأعظم. التوبة نسغ حياة المتدين. الدموع معمودية ثانية.

توما— لم تحدثني عن معمودية الدموع.

— سيأتي يوم أحدثك فيه عنها. ولكني أستبق الزمان، فأقول لك سلفاً رأي الآباء والقديسين.

— ماذا قالوا؟ في مجلة النور (العدد ٣ لعام ١٩٧٩) قرأت شيئاً عن الموضوع. ولكنه مختصر جداً.

— الآباء القديسون أحلّوا الدموع محلاً سامياً. اسحق السرياني اعتبر الخلاص من الرذائل وقفاً على النحيب، وكذلك اقتناء الفضائل. فالدموع تكوي الرذائل وتنعش الفضائل. إنها تجديد للمعمودية. فكلما حفرت أعماقك بالتوبة أحييت آثار المعمودية فيك وأنميتها بقوة.

— وماذا بعد؟ هاتِ.

— اعتبرها غريغوريوس اللاهوتي والدمشقي، وبالاماس، معمودية ثانية. أما يوحنا السلمي فقال فيها قولاً لامعاً في الدرجة ٧ : ٨.

— طالعته. ولكن أودّ الاستماع اليه من فمك، لأتمثله جيداً.

— هذا القديس المعلم الروحاني الكبير يرى أننا نعتمد في طفولتنا ، فندنّس المعمودية فيما بعد. ولكن الله أعطانا الدموع لتطهيرنا من الخطايا التي نرتكبها بعد المعمودية . ويرى انه لولا هذه الدموع المنعم بها علينا إلهياً ، لكان الخلاص عسيراً جداً ولكان الخالصون قلة . ويرى أن ينبوع الدموع هذا الذي ينبجس بعد المعمودية هو أعظم من المعمودية نفسها . هو نفسه يرى في قوله جسارة . ومع هذا يقبل هذه الجسارة

— هل من قائل بهذا سواه ؟ غريغوريوس اللاهوتي اعتبرها أشقّ من معمودية الدم .

— سمعان اللاهوتي الحديث وبالاماس المتصوفان الشهيران يشاطرانه الرأي .

— دموع التوبة تحتل إذن مكانة كبرى .

— إنها تطهير وقيامة للانسان .

— وذارفوها مفقودون ، لأننا سطحيون تافهون نعيش على هامش الوجود .

— والحياة الروحية أثر بعد عين ، إذ الاهتمام بالخلاص مفقود ، والتفكير في الآخرة معدوم .

— بما أن الله قد عظّم صنيعه معنا ، فمنحنا الدموع حمّاماً يطهرنا فأهملناه ، فدعنا نخشع لله ونركع مبتهلين. فهذا خير لنا في هذا الزمان الذي اشتطّ فيه الناس عن الينبوع الحي .

— سمعاً وطاعة ! الله وحده قادر على إنهاضنا من سباتنا العميق وغسل ذنوبنا بالدموع . فإن لم يبن بيتنا الداخلي فعبثاً يتعب البناؤون. لقد تركنا الله ، فتخلّى عنا . لم يعد الله في حياتنا عاملاً أساسياً يحرك وجودنا .

ورفع يديه الى العلاء ، فأوشك بروحه أن ينطلق الى السماء. وحنى رأسه ، وأكبّ على وجهه يتلو صلوات بارة تهتز لها المشاعر والقلوب . ودعا للناس أجمعين. والتمس من الله أن يحفظ كاسيانوس وتوما فدائيين كاملين نبيلين لله . أما هما

فكانا يردّدان، من كل القلب والكيان، إثر كل طلبة وسؤال: «آمين ثم آمين، يا رب العالمين!».

وفرغ من صلاته. الا أن الخشوع والرهبة سيطرا عليهما، فانحبست أنفاسهما مراراً. ولم يستطيعا أن ينبثّا ببنت شفة لأن روحيهما كانتا معلقتين على أدعية بخوميوس.

وغمرهما الشعور بأن الصلاة وحدها تقدر أن تذيب جليد القلوب التي حجّرتها الآثام، فمات فيها الشعور بمسيس الحاجة الى تبليل الأرض بوابل من الدموع، على عمر يضيع في التلهي بالقشور، بدون تكفير عن الذنوب.

وبعد صمت عميق، تنهّدا طويلاً، ونالا البركة، وهمّا بالانسحاب منسحقين الى غرفتيهما. إلا أن توما التفت الى بخوميوس فقال:

— كُتُب النسّاك تركز كثيراً على الدموع. فهل من علاقة بين النسك والمعمودية؟

— نعم! رسامة الرهبان متأثرة بطقس المعمودية. راجع في مجلة «النعمة»[1] مقالاً لراهب الدير المجاور والآباء في Nau 365

ثم انحنيا ونالا البركة وانسحبا الى غرفتيهما مشمولين برعدة وخشوع. وطغى عليهما الميل الى الصلاة، فوضعا الكتب جانباً يملأهما الشعور بأن المطالعة لم تعد صالحة في هذه اللحظات لتلبية حاجات النفس المتعطشة الى الله.

فقضيا الليل في الصلاة الى أن غلبهما النعاس، فأفاقا صباحاً وهما يرددان ما كانا يقولانه قبل النعاس. فعادا الى العمل وهما يكرران في قلبيهما الصلوات المذكورة. وعادا الى بيروت متجددي العزيمة وقاطعي التصميم على اعتماد البطولة الروحية سيفاً قاطعاً للرخاوة والتهاون والتساهل مع النفس.

وقد كان للكلام عن المعمودية كشهادة واستشهاد أثر قاطع في نفس توما. فاعتبر نفسه أنه سيتقدم في ٦ آب الى منبر الشهادة قرباناً حياً على مذبح يسوع.

(١) ص ١١/ ١٩٦٧.

فأخذ يغذّي فيه هذا التفكير. وربما صار هاجساً ثابتاً لديه. فقواه النفسية طفقت تتكتل حول هذا الهدف الأسمى.

وكانت انسطاسيا تترقب وصوله لتقف على آخر تطوراته. فدخل المنزل فاستقبلته بحرارة. فأحسَّت أن نفسه تتوقّد، فارتاحت لمعالم وجهه. قصّ عليها بعض ماجريات أموره فجذلت واختلج قلبها سروراً وطفح وجهها بشراً. وأكدت عزمها على زيارة بخوميوس. فوعدها خيراً وأعلن لها إن اعتماده سيتم في ٦ آب، فتستطيع أن تحضر آنذاك: فقبلت بتأجيل الزيارة الى ذلك الموعد.

وتابع توما اتصاله المعتدل بالأهل والأصدقاء والمعارف لبذر الكلمة. إلا أنه كان يصطدم بتجلد المشاعر الدينية الحقيقية، وطغيان الفكر القَبَلي على الفكر الديني السليم. فأحسَّ بأن الانجيل غاب عن حياة الشخص، فتحجرت عقليته. ولاحظ أن العلم الغربي يسلّح الانسان عقلياً، ويهدمه روحياً، وأن المتدينين من أهل الاستغراب يعيشون التقوى بعقولهم لا بقلوبهم. وأنهم مقتنعون عقلياً بيسوع لا قلبياً.

واستمر على مطالعة كاسيانوس والسلمي متأنياً متعمّقاً. فراعه الفارق الكبير بين روحانية عهديهما وما يراه في المجتمع.

واستغرب موت هذا التراث في شرقنا الذي أَنتجه. وكان يصلي بحرارة لكي يبعث الله في الشرق رجالاً أنداداً للآباء القدامى. ومال الى شيء من التفاؤل، فقال في نفسه:

ما دامت البذور موجودة، فليبذرها أهل النيات الصافية؛ فإن الزمان كفيل بالانضاج، ولو بعد جيل أو جيلين. الكنيسة خالدة. والكنوز فيها مستمرة. فإن تحجر هذا الجيل، لَانَ الجيل التالي أو الثالث. الخميرة ستفعل فعلها. وحبة الخردل ستنمو وتصبح شجرة.

وفي البيت أخذ أكثر فأكثر يهتم بإذابة الجليد من عقل والده. فقد صارت أقنية تفكيره مثبَّتة بصورة لا تقبل بسهولة التبديل والتحويل. إلا أن توما يعطي عامل

الزمن أهمية خاصة. فقد تعلم أن التطور يُبدع. والآن يؤمن بأن الصبر على الأمور كفيل بتطويرها نحو الأفضل. فأخذ يعالج الأمور مع والده بطول أناة، علماً منه بأن مجال التطور الحقيقي هو الانسان نفسياً واجتماعياً وبخاصة إن كان لَدنا غضاً.

أما نعماء فبقيت حائرة بين السطحية والعمق الذي أخذ يغزو البيت. ولم تكن تخفي استحسانها للتطور الحاصل لدى توما. إلا أنها كانت تشعر بالعجز عن مجاراته.

وأطرق توما مرة يطرح موضوع التمزق داخل كل نفس وكل بيت فراعه الأمر وصمم على إيلائه يوماً اهتمامه لإيجاد علاج له، ولو كان من رابع المستحيلات.

الفصل الرابع والعشرون

غطس توما في كاسيانوس ويوحنا السلمي غطسة كبيرة جداً حتى عادا رفيقيه اليسوعيين.

وما ترك الدمشقي وكابازيلاس. وأحب أن يطالع قسماً من العهد القديم الى جانب مطالعاته في العهد الجديد.

نوّع المطالعات. وكان يسمع أن سفر أشعياء بالغ الأهمية وأن سفر المزامير نفثات روح عطشانة الى الله.

إلا أن اهتمامه بأهل البيت أخذ يزداد دون كبير طائل مع أبيه ونعماء وأخوته جبّار وطرّاد ونمار. إلا أن قلب أمه كان يرتكض بهجة لكل تطور يحصل.

بقيت نعماء تتموّج. أمايونان فأخذ يجتهد شيئاً فشيئاً في تغيير نظارتيه العلميتين، ليدرك أن الموت خير معلم للفلسفة. فوضع الموت نصب عينيه، إلا أن عامل السنّ وقف حاجزاً دون الطفرات السريعة.

جبار وطراد هازئان يرفضان حتى الجلوس مع أهلهما لسماع الحديث إلا نادراً.

نمار يراوح بين الأطراف دون جد كبير. ومع هذا لم يسلم الأخوة من تأثير توما. فالجد الطارىء على حياته لفت أنظارهم.

وفي يوم الأربعاء اتفقت نعماء ونمّار على مواجهة توما مواجهة جدية لمعرفة مدى قناعته بهذه التطورات. وضربا موعداً، مساء اليوم نفسه لمواجهة ساخنة قاطعة. وكلف نمار نعماءَ أن تطلب منه انعقاد جلسة في الساعة التاسعة ليلاً. فكان أمر.

وفي الموعد المضروب اختلى الثلاثة في غرفة واحدة. فقالت نعماء لتوما:

— نريد أن نعرف بصراحة مطلقة مدى قناعتك بالديانة المسيحية.

نمار— تطوراتك غريبة وعاجلة جداً. لم نفهم أسبابها.

توما— بخوميوس قلب حياتي. اكتشفت أن العلم ذو قيمة نسبية جداً جداً، وأنه نور باهت. إن نفخنا بالكبرياء نسفنا بلغم لا برء منه إلا بانتشال الله لنا. وإن اعتبرناه ظلاً للنور السرمدي ساعدنا على الانطلاق نحو هذا النور.

نمار— هل أنت مقتنع علمياً؟

— إني مقتنع علمياً بأن هذا الكون— وبخاصة الحياة، وعلى الأخص الانسان— لم يجد نفسه بنفسه، ولا يستطيع ذلك. والانتقال من الجماد الى الحياة ومن الحياة الى الانسان ما هو إلا حديث خرافة يا أم عمرو. علينا أن نتواضع. فتواضعتُ. ولما تواضعتُ هداني الله.

— هل أنت مقتنع بيسوع؟

— لست مقتنعاً. وإنما أنا ممتلىء قناعة به.

— وهل تقبل ما تقوله الكنيسة فيه بعجره وبجره؟

— أؤمن بالكنيسة نفسها كبند إيمان.

نعماء— هل أنت مستعد لتقبّل الانجيل بكل صرامته التي تلوي ليّاً مفتولاً جداً طبيعةَ عيش الناس العاديين؟

— العيش العادي هو عيش نفاقي. أتسمعين بالرقص بأزياء التنكير؟

— طبعاً.

— الناس جميعاً على مسرح الحياة العادية راقصون ارتدوا أزياء منكرة. دورهم دور كاذب. وجودهم وجود خداع. هم أردأ الممثلين على مسرح الحياة.

— في التمثيل يجتهد الممثل في أداء دوره كأنه حقيقة.

— الراقصون المتنكرون يؤدون دورهم تمام التأدية. إنهم مزيفون.

نعماء— وأين الحقيقة؟

توما— يسوع وحده الحق والحقيقة. ارتديه ترتدي الحقيقة السافرة.

تمار— لا أستبعد أن تستطيع يوماً تبديل قناعاتي وإقناعي بالاعتماد.

نعماء— وإن كنت غير قادرة على السير في ركاب توما إلا أني أشجعك على الاعتماد.

— ما زلت محتاجاً الى مراجعات عديدة. فاعذراني الآن، فإني أود الإخلاد الى الراحة. يكفيني ما نلته اليوم.

الفصل الخامس والعشرون

بعد ظهر يوم الجمعة توجه توما الى دير الحرف كعادته. وزار بخوميوس. وعرض عليه حاجته الماسة الى الخلوة وفحص الضمير على أن يعود اليه غداً للتدريب على الاعتراف. وعاد الى الدير ليختلي.

وكرر في ذهنه ما طالعه من الكتب المدفوعة اليه.

وعرض ماضيه على مشرحة هذه الكتب، فوجد انه عاجز عن معرفة نفسه تمام المعرفة. وكلما أوغل في المقارنة بين تاريخه الشخصي وتعليم الرب ورسله والآباء القديسين ازداد قناعة بأن الانسان عاجز تماماً عن فهم نفسه، وأنه إن فهمها عجز عن تفكيك عقدِها واستجلاء كل غوامضها.

وطرح على نفسه الأسئلة تلو الأسئلة عن فداحة الخطيئة. طالع الفصل ٧ من

رومية ليهتدي ببولس الرسول، فوجد أن الصراع فينا بين ناموس الله وناموس الخطيئة صراع مصيري جداً، قاسى منه بولس نفسه ما قاسى.

وطالع الفصل ٥ من غلاطية فتحقق أن الصراع قائم بين شهوة الروح وشهوة الجسد.

وقال في نفسه: شهوة الجسد مرتبطة بنشاطنا اليومي. شهوة الروح جهد فوق الطبيعي نفرضه على أنفسنا فرضاً. أنا جسدياً شهواني بطبعي. روحياً أشتهي بجهد شخصي. بتعبير آخر الجسداني يشبه الموروث. الروحاني يشبه المكتسب. والحرب بين الموروث والمكتسب ليست حرباً سهلة. أقدّ حياتي الروحية قدّاً من الصوان بينما تعصف بي رغباتي الجسدية رغماً عني لأنها تسيل سيلاً ضد سدود أقيمها قسراً.

ووضع رأسه بين يديه وأطرق الى الأرض وصلّى:

— ربي! أدخلتني معركة المصير وأنا فيها غير بصير. فلا دربة ولا حنكة ولا خبرة ولا تبصر ولا سلاح. فأنا في زمرة الأغرار الخاضعين لقانون الزلل والضلال. وليس لي فيها إلا ما تشاء أن تقلّدني إياه بإنعام منك لا تمنعه عن أي مريد ابتغاك.

وانصرف الى مطالعاته، فالصلوات الطويلة حتى أخذه النعاس وغطّ في السبات وهو يردّد: «يسوع، يسوع، يسوع».

وفي الصباح حضر قداس الموعوظين. وفي الضحى زار بخوميوس. فقال له:

— لم أدربك بعد على خدمة القداس الإلهي. فقد دنا أوان المعمودية. اليك كابازيلاس.

— أما تودّ أن تدربني على الاعتراف؟

— أجّلِ الأمرَ الى غد ريثما تنضج في المطالعة والفهم.

— طالعت.

— تتوهم أنك فهمت. إن استيعاب كاسيانوس والسلمي عقلياً يبدو سهلاً. أما روحياً فالحياة كلها استنباط لدررهما وأمثالها. الأحد القادم سأسلمك كتاب اسحق السرياني.

— أنت تفضل إذن أن أطالع لوحدي خلال هذه المرحلة.

— نعم! هذا يساعدك على النضوج. فقد تناولت من الطعام ما يفوق طاقتك. طالع جيداً خدمة المطالبسي، فإنها تعدّك إعداداً جيداً للاعتراف.

— سأعود إذنَ الى غرفتي وأقضي الوقت في الصلاة والمطالعة والتسبيح في الطبيعة.

وقضى النهار كما قال. وحضر في الصباح قداس الموعوظين وأتى بخوميوس بعد العصر.

استقبله بخوميوس بترحاب كبير. ونصحه بأن يطالع في الأسبوع الحاضر الكتب المدفوعة اليه، لينتقل الى موضوع جديد، تاركاً للنضوج الروحي أن يفعل فعله خلال أسبوع.

تعجب توما من هذا التأجيل فسأل بخوميوس عنه، فأجاب:

— بعد أن تم الاتفاق على تعميدك في ٦ آب، فقد صار لزاماً علينا أن نرتاح قليلاً. فما تجمع لديك من معلومات يحتاج الى عام كامل للهضم والتمثل. فإرتح بما فيه الكفاية. في يوم الجمعة نبدأ الاعتراف. وفي يوم الأحد أسلمك كتاب اسحق السرياني.

— فإلى الخلوة إذن. فغداً سأبدأ الصيام.

— الى الخلوة. وفقك الله. إلا أن لدي شيئاً آخر أقوله لك.

— ماذا!

— لا بدّ لك من أن تذهب الى أديرة جبل آثوس للتمرس بالفضائل الانجيلية. فعندنا حذف التزييف الصورة الصحيحة للأمور. وآباؤنا القديسون علمونا أن نقتبس كل فضيلة عن القديس الذي أتقنها. وفي جبل آثوس تعثر على هذه الضالة المنشودة، فترى راهباً لمع في العفة، وآخر في التواضع، وثالثاً في كره المال والمقتنيات، ورابعاً في الوداعة وخامساً في المحبة، وسادساً في قمع شهوات البطن عابد الأطعمة الدسمة، وهكذا دواليك.

توما — ما هذه الأديرة؟

— جبل آثوس معروف باسم جمهورية الرهبان. الأديرة فيه عديدة. وتراثه الرهباني عريق ومتواصل سحابة نيف وألف عام. ومنذ القرن الرابع عشر أصبح المركز الأكبر للإشعاع الروحي الأرثوذكسي بالرغم من عهود الانحطاط. ومنه انتقل الاشعاع الى رومانيا وروسيا.

— ولماذا لم ينتقل الينا؟

— لأن الانحطاط الروحي عندنا أغلق ديرنا فيه، فانقطعت صلتنا به.

— يجب أن تعود.

— بيننا وبين النسك مسافات شاسعة. التقوى عندنا قشور لا عمق واستشهاد. والدين مسألة هامشية لا التزام كل الكيان. لقد فقدنا الايمان بالبتولية. وهذه كارثة كبرى.

— أما نستطيع أن نستعيده؟

— في القرن الثالث وفي القرن الرابع نضج المسيحيون لإخراج جيش من المتبتلين. المسألة مسألة نضوج روحي خلال جيلين أو ثلاثة. فقدنا النضوج منذ دهر ولم نستطع بعد أن نستعيده.

الفصل السادس والعشرون

بعد القداس، يوم الجمعة، زار توما بخوميوس وقد تشبع من كاسيانوس والسلمي. وركع توما ليعترف متوهماً أن اعترافه سيكون بالصورة التي يتم بها في المدن.

فأقامه بخوميوس وأجلسه الى جانبه. سأله:

— هل أنت مستعد للبوح بجميع خطاياك التي اقترفتها خلال عمرك؟

— نعم !

— هل تعتمد الصراحةَ المطلقةَ منهجاً !

— نعم !.

— هل تُبعد الخجل نهائياً لتستطيع أن تعترف اعترافاً تاماً؟

— قدر المستطاع.

— ولكن إبعاد الخجل من الاعتراف لا يعني إبعاد خجلنا من الخطيئة. فعلينا أن نمقت الخطايا من كل النفس والقلب والذهن والحواس، من كل الكيان، دون الكذب على أنفسنا.

— متى نكذب على أنفسنا؟

— حين نبرّر أنفسنا خجلاً من رؤية أنفسنا خاطئين كباراً.

— أستطيع أن أبدأ الآن؟

— هاتِ.

ودار بينهما حديث طويل غير معدّ للنشر. فالله وحده بقي شاهداً عليه.

وتكرر الأمر كل يوم.

وفي يوم الأحد سلّم بخوميوس توما كتاب اسحق السرياني، فأكبّ عليه باجتهاد بليغ، يلتقط كنوزه الثمينة، ويودعها قلبه المتأجج حماساً.

وكان يملأ الوقت بالمطالعة والتنزه في صنوبر الدير للصلاة واستنشاق الهواء.
وكلما اقترب شهر آب ازداد حماساً وغيرة.

وشاقه اسحق فصار صديقه الوفي.

ويوم ٣٠ تموز تذكر أن عليه أن ينزل غداً الى بيروت ليتسلم الكراسة. فامتطى سيارته في الصباح الباكر واتجه صوب بيروت. فأعدَّ أولاً حقيبته للسفر الى جبل آثوس. ثم حصل على تأشيرة السفر وانتقل الى المطبعة لتسلم نسخ خدمة المعمودية المقدسة.

ودبّج رسالة الى ٥٠ منزلاً من الأهل والصحب لحضور اعتماده وأرفق بها نسخة من الكراسة. فجاء في الرسالة:

«حضرة....

يسرني أن أدعو أهل بيتكم الى حضور اعتمادي في دير الحرف وذلك في الساعة الحادية عشرة من يوم الأربعاء الواقع في ٦ آب أي يوم عيد تجلي ربنا.

وقد أرفقت بالرسالة كراسة الخدمة لتطلعوا عليها سلفاً وتتابعوها أصولاً، لأني حريص على أن يسيطر الخشوع على الاحتفال المهيب، فيكون حضوركم اشتراكاً في الصلاة فعلياً لا حضوراً بروتوكولياً.

وأرجو أن تلفتوا أنظار الصغار الى وجوب احترام حرمة الدير في الصمت والخشوع.

وإني سأكون شاكراً لكم جداً إن حضرتم خدمة القداس الإلهي واشتركتم في القربان المقدس على موجب تعليم الآباء القديسين بتناول القربان كلما حضر المسيحي قداساً.

وبما أني سأبقى في الدير يوم اعتمادي، فقد قررت الاستغناء عن إقامة مأدبة كالعادة الجارية واقفاً كلفتها للدير. وأظن أن ذلك سيسركم لأن فيه خدمة للمصلحة العامة. ويا ليت الجميع يقتدون بهذا المثل، فنتعلم الانفاق على شؤون الكنيسة بدلاً من التبذير».

تسلم المدعوون الرسالة فأثارت شتى التعليقات السلبية إلا من نفر ضئيل استحسن الانفاق على المطبوعات الدينية والمؤسسات الكنسية بدلاً من الانفاق على البذخ حتى في المناسبات الدينية التقوية.

وعشاق الولائم من المدعوين تأففوا. وبعض النسوة من عبيدات التقاليد البالية رأين في إلغاء الوليمة خرقاً فادحاً لتقليد مستقر. واتهمن توما بالبخل والشحّ. وفكّرن في المقاطعة. ونفر آخر تذمر من تأكيده على حضور القداس والمناولة، إذ سلخ العمر تقريباً لا يبالي بالمناولة ولا يحضر من القداس إلا جزءاً بسيطاً.

وبلغ هذا مسامع توما فلم يكترث. فانتقل في ٢ آب الى الدير للخلوة والتنسك والتهجد والاعتراف المستفيض بالخطايا. فخفّف وقعاته اليومية كمية وكيفية. وغاص في مشاعر التوبة حتى بلّل الأرض مراراً بالدموع. وقضى يومي الاثنين والثلاثاء يتناول وقعة واحدة تناولها مساء الاثنين وظهر الثلاثاء. وتولى بخوميوس قيادة هذه اللحظات الخالدة من العمر على مسؤوليته الشخصية.

وصباح الأربعاء توارد المدعوون أفراداً في أوقات مختلفة. فحضروا القداس بشيء من التقيد برغبات توما إلا نفراً لم يتقدم الى الكأس المقدسة.

وكان رئيس الدير قد أعدّ للمناسبة عظة روحية عميقة عن المعمودية المقدسة، ووجوب تعميد الأطفال باكراً، وتنشئتهم روحياً بصورة باكرة جداً لكي يرضعوا التقوى مع الحليب. وخاطب الأمهات بلغة حازمة وشديدة، فقال لهن:

«أنتن المسؤولات بالدرجة الأولى عن التربية. والله سيطالب الأمهات بالجواب عن انحراف الأولاد عن سواء السبيل. فأم تجيد تربية ابنها هي وحدها الحصن الحصين ضد انقلابه على يسوع. فيسوع وضع أولادكن أمانة في رقابكن. ومن هذه الرقاب سيطلب الحساب العسير. إعتنينَ بهم أطفالاً صغاراً تضْمَنَّ لهم العيش في أحضان يسوع. كل خدماتكن لهم باطلة ومؤذية إن لم يعيشوا ليسوع. أفضل ما تورثنه لأولادكن هو التقوى. بدلاً من حشوهم بالطعام وتدجيجهم بالصوف وفاخر الثياب دجّجْنَهم بالتقوى. الطعام المتخِم يفسدهم أما التقوى فتصنعهم رجالاً لله. وما انحلتْ الأخلاق في بلد إلا بانحلال تربية الأمهات للأولاد. فالمجرمون وكل هادمي أخلاق المجتمع حملوا الى الوطن أوبئة بيئتهم المنزلية. والأمهات هن المسؤولات بالدرجة الأولى. فمن أجل إنقاذ الكنيسة والوطن، لِنُلِحَّ جميعنا على مسؤوليات الأمهات ولنعِظْهن بذلك».

ووخزت العظة الضمائر حيناً، فخرج الجميع إلا نفراً يؤيدون الواعظ. أما النفر المذكور فأخذ ينتقد ويجادل ويماحك دون أن يحظى بآذان صاغية، خلافاً للعادة في المناسبات الأخرى.

وقد عزا كاسيانوس هذا التبدل للتأثير الأدبي الذي تركه منظر بخوميوس على الحضور. فإنه شارك توما في الانقطاع عن الطعام ولكن تماماً لا جزئياً. وبدا وجهه شاحباً وقامته فارعة متوثبة كأنه شهيد ينطلق الى مذبح استشهاد. وكأن لمحات من الإشراق تتألق أحياناً في وجهه.

وقد أثر منظره على سليمان أكثر من الجميع. فتقدم منه في نهاية القداس، والتمس البركة، وقال:

دعاني توما للتعرف عليك، فامتنعت. ولكني بدّلت رأيي اليوم، وقررت أن أوثق علاقتي بك. فهل تقبلني تلميذاً في مدرستك؟

— تلميذاً في مدرسة يسوع. فلستُ صاحب مدرسة. الانجيل هو مدرستي وطعامي الدائم.

— أي أريد أن أتدرب على يدك وأتوب عن الماضي البغيض.

— أهلاً بك متى شئت.

— سأغتنم أول مناسبة.

— لا حاجة الى مناسبة أخرى. فإني أضع نفسي تحت تصرفك فوراً. نحضر بعد قليل اعتماد توما ونبدأ المهمة.

— أنت مستعجل.

— خلاصك هو الأمر الأعجل من أي أمر آخر.

— أنا بحاجة الى استعداد.

— الآن وقت مقبول للخلاص. فلماذا التأجيل؟ الآب السماوي يفتح لك أحضانه السيدية الآن. فلا تؤخر عمل النعمة.

— لست مستعجلاً.

— ألا تهتم بخلاصك؟

— أهتم به. إلا أن ضميري ملبّد.

— الروح القدس يُنزل الصحو فيه فوراً. احضر إلي عقب اعتماد توما.

— اسأل الله أن يقويني على ذلك.

— لطف الله يقودك الى التوبة. وستقويك نعمته.

— أستأذنك لأرى الصحب.

— عد إليّ.

— إن شاء الله.

وعاد الى التردد لا يقطع أمراً. إلا أن صورة بخوميوس ولهجته تحولاً الى سيف يخترمه. فصار يتقلب على الرمضاء.

وما أن انصرف حتى جاءت صالومي تسلم على بخوميوس وتلتمس بركته دون الدخول في حديث.

أما ماريا فأتت تلتمس البركة وتطلب أن يقبلها عرابة لتوما الى جانبه. فقبل بسرور، فطارت فرحاً لهذه الزمالة الرفيعة.

وعند الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً أخذ توما يتهيأ للاعتماد، فتعرى من ثيابه وارتدى الثوب المخصص.

وانتظم الناس حول إناء الاعتماد بحشمة وأدب وخشوع. وجرت المراسيم وفق الأصول. فوقف توما بين عرابيه أمام رئيس الدير كأنه شاة مسوقة الى الذبح، خاضعاً طائعاً مستسلماً لربه، قد داس كبرياء المتعلمين، وعاد الى يسوع كالأطفال.

وما إن أتى أوان رفض الشيطان وموافقة المسيح حتى جلجل صوت توما وتحولت النعجة الى أسد هصور. فتقززت نفسه أيما تقزز ضد الشيطان وأعماله معلناً كرهاً قاطعاً للشر. واعترف بيسوع بصوت بدا كأنه منتزع انتزاعاً من بين الضلوع بقوة المؤمن الساكب نفسه فيما يعتقد.

ولما تم إيقاد الشموع تلألأت الكنيسة وأشرقت الوجوه واختلجت القلوب، فشعر الجميع أن اليوم هو يوم عيد القيامة.

ولما حان أوان التغطيس أشار رئيس الدير على الجميع بالركوع فركعوا يرسمون الصليب ويرددون مع الكاهن «آمين!» لدى كل غطسة.

ورفعوا رؤوسهم فشاهدوا وجه توما لماعاً ووجه بخوميوس مشرقاً.

وهتف الجميع: «مبروك! مبروك!» ثم ساد الصمت لحظة لتدوي الكنيسة بترنيم المزمور ٣١: «طوبى للذين غفرت ذنوبهم...»

ولما انتهت المراسيم كلياً أقبل الحاضرون على تهنئة توما مأخوذين بالتبدل العميق الطارىء على وجهه. فتأثروا عميقاً وتشجع سليمان على العودة الى بخوميوس يطلب موعداً. فأعلن له استعداده الفوري وأمسك بيده وأخذه اليه لئلا يوسوس له الشيطان الخنّاس. انقبض. ولكن شعر أنه وقع في الشبكة ودخل فترة المخاض العسير.

ورأى رئيس الدير أن الواجب يقضي بإكرام الحاضرين، فتم تقديم طبق من فناجين القهوة وأقراص الحلوى. وأعلن للحاضرين أن توما فتح فتحاً جديداً بتوزيع كراسة خدمة المعمودية على حسابه ضارباً عرض الحائط بالتقاليد الدنيوية البالية. وزاد:

— في عصر يعبّ الناس فيه العلم عباً ويلتهمون الجرائد والمجلات والكتب التهاماً، أهم رسالة للكنيسة هي تقديم وقود للعقول. والوقود المطلوب هو نشر الكتب الدينية على أوسع نطاق لمزاحمة كتب التفاهات. وخير التبرعات بعد اليوم هو ما صبّ في هذه القناة.

فحيا الحاضرون الفكرة وطالبوا رئيس الدير بإنشاء دار للمطبوعات في أقرب فرصة.

ولم يستطع سليمان الإفلات من يدي بخوميوس حتى أفاض نفسه بين يديه في اعتراف مفصل بما اجترمه خلال حياته. فخرج من لدنه مهصوراً هصراً.

وقضى توما يومه في الدير على أمل أن يغادره في اليوم الثاني الى أثينا فجبل آثوس .

فاستراح في غرفته منقطعاً الى التأمل والتسبيح والاستماع الى شريط القياميات . فحول غرفته الى كنيسة قيامة مصغَّرة . فعاش يوماً مشهوداً لا يدري إن كان قائماً على الأرض أو موجوداً في السماء . تخيل أن جحافل الملائكة والقديسين تشاطره فرحته فصار الترنيم المتواصل مع الملائكة هوايته : « قدوس ، قدوس ، قدوس رب الصباؤوت » .

وفي اليوم التالي أفاق باكراً فحضر القداس الإلهي وتناول مسبحاً الله . فاجتمع الرهبان وبخوميوس لوداعه ، فقال له بخوميوس :

سافر في حراسة الله وسلّم على اخوتنا في أديرة جبل آثوس انطونيوس ومكاريوس وأغاثون وثيودوسيوس وسابا وافتيميوس وسمعان وافرام ودانيال واسحق ومكسيموس وكليمَكوس وبالاماس وسائر اخواننا هناك . وقل لهم : إننا نطالب بديرنا لديهم الذي هجره السابقون وسيحييه اللاحقون . فطالبهم باسمنا بهذا الحق وسلهم أن يصلوا لكي نملأه من جديد ، متى أنعم الله علينا بذوبان الجليد .

وقبَّلوه فرحين ، وشيّعوه الى سيارته مهللين . ففارقهم وفي القلب غصة ، بالرغم من الشوق الملتهب بين الضلوع الى العيش شهراً مع عشاق رب الوجود .

الكتب التي تصدرها مكتبة السائح وتوزّعها

الرقم	اسم الكتاب	المؤلف
I	**الكتب العامة**	
١	طوبى للودعاء	الأستاذ فيليب عبد الحق
٢	المرجع في تاريخ العلوم عند العرب	الدكتور عبد الرحمن مرحبا
٣	رسالة في العدد	الدكتور محمد عزّت نصر الله
٤	قصائد الزمن الميت	ميشال سابا
٥	الروضة الغنّاء في دمشق الفيحاء	نعمان قساطلي
٦	حديقة الصداقة والصديق في لزوميات أبي العلاء المعري	الياس سعد غالي
٧	أناشيد في تجليات الزمن الديني	ميشال سابا
٨	مفهوم الايمان بين الأناجيل والقرآن	الأب سلّوم سركيس
٩	لبنان وفلسطين والمسيحية	الأب سلّوم سركيس
II	**الكتب الدينية**	
أ	**الكتب الطقسية**	
١٠	صلاة النوم الكبرى	نفدت
١١	كتاب المديح	المطران ملاتيوس صويتي
١٢	البهجة الروحية	
١٣	التعزية الحقيقية	الأسقف رفائيل هواويني
١٤	الأفخولوجي الصغير	
ب	**شروحات الكتاب المقدس**	
١٥	شرح الرسالة الى فيلمون	
١٦	شرح الرسالة إلى تيطس	
١٧	شرح لرسالة بطرس الأولى	
١٨	شرح لرسالة بطرس الثانية	

مؤسسة خليفة للطباعة
بولفار الدورة - البوشرية
تلفون: ٨٩٤٨٣٧

المنشورات الارثوذكسية

توزِّعها

مكتبة السائح

طرابلس - شارع الراهبات

تل ٦٢١٥٤٩ — ٦٢٥٧٥١

٦٢٧٠١٧